آيات
أسس التفاضل بين الناس
دراسة تحليلية وموضوعية

د. قوام الدين عبد الستار محمد الهيتي

Bases of Differentiation between People
Verses
Analytical Study and Objective

Dr. Qawam Abdul Sattar Muhammad Al-Heaty

The differentiation between human beings is based on faith, and make the righteous deeds as a balance among human beings. And the Quran points to the science as a great grade among humans and thus the differentiation between human beings.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي وضع الأسس الصحيحة للتفاضل الإنساني، التي تؤدي إلى سعادة البشر وإعطائهم ما يستحقون من فضل ومكانة، على اختلاف عصورهم وبلدانهم، بما يتوافق مع تطلعات أولي الألباب في سعيهم لإقامة الحضارات السامية، والصلاة والسلام على من حاز السبق على البشر كلهم أولهم وآخرهم، في الفضل لما جمع في حضرته الشريفة من إيمان وتقوى وعلم، وعمل صالح على اختلاف أنواعه وجهاد عظيم، مع اتصافه بالعدالة، وكونه سباق للمكرمات ولما اتصف به من قدرة على سياسة الأمور على أحسن ما يرام بالحكمة والموعظة الحسنة، دون أن يتنازل عن المبادئ الشريفة.

أما بعد:

فقد اخترت موضوع (آيات أسس التفاضل بين الناس، دراسة تحليلية وموضوعية) لأكتب فيه أحد بحوث ترقيتي لنيل درجة الأستاذية.

وأهم دافع دفعني للكتابة في هذا الموضوع، أني وجدت أسس التفاضل بين الأفراد والشعوب في رفع بعض البشر على غيرهم، لم يبن على أسس صحيحة منصفة.

فمع تقدم عالمنا المعاصر في مجال الحضارة المادية، إلا أننا نسمع أن بعض الشعوب تدعي أنها أرقى من غيرها، مدعين أن جنسهم أرقى من أجناس غيرهم، وما يزال التمييز العنصري شاخصاً لأعيان المنصفين في كونه نقطة سوداء في جبين الإنسانية، ويرى من أمتلك القوة أن آراءه ينبغي أن تسود.

وهذا يفتخر ويتطاول على غيره لكونه أكثر حسباً من ذاك، الغني يحتقر الفقير، وبعض الجهلة أخذوا يتطاولون على ذوي العلم والنباهة في كل ميدان من ميادين المعرفة.

فلهذا وغيره أخذت أجمع الآيات التي تناولت رأي القرآن الكريم بالتفاضل الإنساني.

ثم شرعت أجمع مادة البحث من أمهات كتب غريب القرآن والأعراب والقراءات، وأبرز المصنفات في علم التفسير وأسباب النزول وغيرها، رغبة مني في أن أقدم عملاً شاملاً لمختلف جوانب الدراسة التفسيرية التحليلية والموضوعية في آن واحد.

ليكون المسلم المعاصر على بينة من هذا الموضوع المهم الذي يهم السياسيين والاجتماعيين والتربويين والمفكرين على اختلاف تخصصاتهم وثقافاتهم.

وإن أول من ينظر فيما رسمه القرآن الكريم في هذا الجانب سيجد أن الأسس التي وضعها القرآن للتفاضل الإنساني تعلو على النظر إلى التفاضل من حيث الجنس واللون واللغة والموقع الذي يعيش فيه الإنسان، وسائر الاختلافات البشرية الزائلة من غنى أو حسب أو مجد تاريخي.

فإن القرآن كان في وضعه لأسس التفاضل عالمياً لا يحابي أمة على أمة، ولا ينظر للتاريخ على أنه محكم. ولا يجامل الأمم الكبيرة أو القوية على حساب الأمم أو الأفراد المغلوبين، بل وضع أسساً عامة مشتركة لبني البشر كافة. من أخذ بحظ وافر منها ساد على غيره، وأرتفع قدره في الأرض وفي السماء.

وعلى رأس هذه الأسس دعامة الإيمان بالله الواحد الأحد، والإقرار برسالات السماء كافة. وما يتبع ذلك من لوازم الإيمان كالعمل الصالح والتقوى وطلب العلم، والكفاءة في أداء الأعمال على أحسن وجه والسبق إلى نصرة الحق، وفعل الخيرات.

وبعد استقرائي لآيات القرآن الكريم وجمع مادتها العلمية وصياغتها بما يتلاءم مع ثقافة الأقدمين وحاجة الباحثين المعاصرين، لآخذ رأي القرآن في التفاضل الإنساني بوضوح وشمولية وأمانة.

واستلزم البحث أن أقسمه إلى مقدمة بينت فيها أهمية هذا الموضوع الذي اخترته لذوي العلم على اختلاف تخصصاتهم.

وأربعة مباحث هي:

المبحث الأول: التفاضل بين الناس بسبب الإيمان وعدمه.

المبحث الثاني: التفاضل بين الناس بسبب اختلافهم في الأعمال الصالحة والتقوى، وأشتمل هذا المبحث على مطلبين:

المطلب الأول: التفاضل بسبب اختلاف الناس في الأعمال الصالحة والطالحة.

المطلب الثاني: التفاضل بين الناس بسبب تباينهم في التقوى.

المبحث الثالث: تفاضل الناس بسبب تباينهم بالعلم والكفاءة وأشتمل هذا المبحث على مطلبين:

المطلب الأول: تفاضل الناس بسبب تباينهم بالعلم.

المطلب الثاني: تفاضل الناس بسبب تباينهم بالكفاءة.

المبحث الرابع: التفاضل بين الناس بسبب الجهاد والسبق إلى الإسلام وأشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: التفاضل بين الناس بسبب الجهاد.

المطلب الثاني: التفاضل بين الناس بسبب السبق إلى الإسلام.

وخاتمة: أوجزت فيها خلاصة ما توصلت إليه من نتائج.

ثم عرفت بالمصادر والمراجع التي اعتمدتها من حيث ذكر أسم الكتاب كاملاً وذكر أسم مؤلفه ومحل الطبع وتاريخه، إذا ذكر ذلك.

وأخيراً أسأله تعالى أن يجعلنا ممن يخدم كتابه القرآن الكريم، ويدعو إلى نصرة مبادئه وأهدافه من أجل الظفر بسعادة الدارين.

وهذا مبلغ علمنا وجهدنا في هذا المضمار. فإن وفقنا فهذا من فضل الله علينا، ورحم الله من وجد زلة أو هفوة أن يقيلها، وله منا وافر الحب والثناء.

الباحث

أ.د. قوام الدين عبدالستار محمد الهيتي

المبحث الأول

التفاضل بسبب الأيمان[١] وعدمه

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[٢].

معاني المفردات:

كنتم: أي في علم الله، أو في اللوح المحفوظ، وقيل معناها: صرتم.

ويجوز أن تكون كنتم زائدة، ومعنى الآية: أنتم خير أمة، فإضمار كان، في مثل هذا وإظهارها سواء[٣]. ورأى العكبري: إن عد كان زائدة خطأ، لأن كان لا تزاد في أول الجملة، ولا تعمل في خير[٤].

خير أمة: أفضل أمة[٥].

ويراد بالأمة هنا: أمة محمد ﷺ، المسلمون خاصة[٦].

وأمة في اللفظ واحد وفي المعنى جمع[٧].

والمعروف: ما أمر به الشرع وأستحسنه العقل السليم.

والمنكر: ما نهى عنه الشرع وأستحسنه العقل السليم[٨].

وفسر هارون بن موسى الأمر بالمعروف في هذه الآية بالتوحيد، والنهي عن المنكر عن الشرك[٩]. والصواب القول بعموم ما يدل عليه المعروف والمنكر.

---

(١) الإيمان في اللغة: التصديق، ينظر: مختار الصحاح للرازي: ٢٦ مادة أمن. ويراد به على رأي الجماهير في الشرع: التصديق بالجنان، والإقرار باللسان والعمل بالأركان.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/٢٢٩. وإعراب القرآن للنحاس: ١/٤٠٠، التبيان في إعراب القرآن للعكبري: ١/٢٨٣.

(٤) ينظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري: ١/٢٨٤.

(٥) ينظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم لهارون بن موسى: ٧٥.

(٦) ينظر: المصدر نفسه: ٦٥.

(٧) ينظر: معاني القرآن للأخفش: ١/٤١٦.

(٨) ينظر: صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني: ١/٢٠١.

(٩) ينظر: الوجوه والنظائر: ٩٣.

وقال مجاهد: كنتم خير أمة إذ كنتم تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر.

وقيل إنما صارت أمة محمد ﷺ خير أمة لأن المسلمين أكثر. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى.

وقيل: هذا لأصحاب الرسول ﷺ خاصة[١].

وهذا ما عليه الجماهير، بل نقل الإمام ابن الصلاح الشهرزوري إجماع المفسرين عليه[٢].

سبب النزول:

قال عكرمة و مقاتل نزلت في ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة، وذلك أن مالك بن الضيف، ووهب بن يهوذا اليهوديين قالا لهم:

إن ديننا خير مما تدعونا إليه، ونحن خير وأفضل منكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٣].

الإعراب:

كنتم: علمنا أ بعضهم جوز أن تكون زائدة.

أخرجت: جملة فعلية في موضع جر لأنها صفة لأمة.

للناس: جار ومجرور في موضع نصب

والجار والمجرور إما أن يكونا متعلقين بـ (أخرجت). أو أنهما متعلقان بـ (خير)[٤].

تأمرون: الجملة الفعلية هذه إما أن تكون خبراً ثانياً لـ (كنتم) أو تفسيراً لخير، أو أنها جملة مستأنفة[٥].

الأوجه البلاغية:

في قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مقابلة، وهي من المحسنات البديعية[١].

---

[١] ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ١/٤٠٠.

[٢] ينظر: علوم الحديث لابن الصلاح: ٢٩٤-٢٩٥.

[٣] ينظر: أسباب النزول للواحدي: ١٠١.

[٤] ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ١/٢١٤.

[٥] ينظر: التبيان في غريب القرآن للعكبري: ١/٢٨٤.

المعنى الإجمالي للآية:

كنتم يا من آمنتم برسالة محمد ﷺ في علم الله، القديم، أفضل أمة ظهرت على وجه الأرض منذ خلق الله سبحانه البشر، أو أنكم صرتم خير الأمم كلها منذ آمنتم برسالة الإسلام، لأنكم قد توافرت فيكم شروط الخيرية الثلاثة، وهي الإيمان بالله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإن الخيرية في هذه الأمة مستمرة للأجيال كلها ماداموا ملتزمين أو محققين لهذه الشروط التي رسمها الله لخير الأمم مطلقاً .

الفوائد المستنبطة من هذه الآية:

١. إن أمة الإسلام أفضل الأمم التي ظهرت على وجه البسيطة، لكونها أمة مؤمنة بالله تعالى، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر.
٢. إن من أسس التفاضل بين البشر:
   أ. الإيمان بالله
   ب. الأمر بالمعروف.
   ج. النهي عن المنكر.

وقال تعالى ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾(٢).

معاني المفردات:

الفضل: الجنة(٣)

المعنى الإجمالي:

يأمر الباري ﷻ نبيه محمداً ﷺ أن يبشر المؤمنين برسالته (الإسلام) بأن الله جلت قدرته قد أعد لهم الجنة ذلك الفضل العظيم، جزاء لأيمانهم، ومفهوم المخالفة من هذه الآية يقتضي أن غير المؤمن برسالة الإسلام محجوب عنه فضل الباري الكبير على المؤمنين بدخول الجنة.

الفائدة من الآية:

---

(١) ينظر: صفوة التفاسير: ٢٠٣/١.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٧.

(٣) ينظر: الوجوه والنظائر:

إن من أسباب التفاضل بين البشر التي رسمها القرآن، الإيمان وهو الأساس الأول للتفاضل بينهم.

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١).

معاني الألفاظ:

مكباً على وجهه: أي لا يرى طريقه فيخر لوجهه.

سوياً :عدلاً مهدياً آمناً من العثار.

الإعراب:

(من) في موضع رفع مبتدأ، وخبرها: أهدى.

وجملة ﴿ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ عطف عليه(٢).

وخبر (من) الثانية محذوف.

مكباً: حال منصوب.

على وجهه: توكيد للحال(٣).

الأوجه البلاغية:

فيها استعارة تمثيلية، إذ مثل الله للمؤمن بمن يمشي سوياً على صراط مستقيم، وللكافر بالذي يمشي مكباً على وجهه إلى طريق الجحيم(٤).

المعنى الإجمالي للآية:

شبه الله ﷻ المؤمن بالبصير، منتصب القامة، الذي يمشي على الطريق المستقيم، وهو آمن من الخبط والعثار، وإن الكافر في ضلالته بمنزلة الذي يمشي مخراً لوجهه، أو هو أعمى لا يرى طريقه فيخب خبط عشواء لم تصب، فيتعثر كل حين، وهذا حال المؤمنين والكافرين في الدنيا، وكذا حالهم يوم القيامة، والكافر يحشر على وجهه إلى دركات الجحيم فإن الله الذي مشى الكافرين على أرجلهم في الدنيا

---

(١) سورة الملك: الآية ٢٢.

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤٧٢/٤.

(٣) ينظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري: ١٢٣٣/٢.

(٤) ينظر: صفوة التفاسير: ٣٩٨/٣.

قادر على أن يمشيهم في الآخرة على وجوههم، والمؤمن يحشر على الطريق السوي(١).

الفوائد:

إن المؤمن أفضل من الكافر من حيث الفكر والسلوك، لأن المؤمن سالك الطريق المستقيم، وأن الكافر سالك طريق الرذيلة الذي يقوده إلى الجحيم.

وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٢).

معاني الألفاظ:

أفنجعل: الألف هنا أتت للاستفهام الإنكاري، والغرض منها التوبيخ(٣).

المجرمين: الكافرين. أو العاصين.

سبب النزول:

روي أن بعض كفار قريش قال: إن كان ما يذكرون أن لهم في الآخرة حقاً، فإن لنا في الآخرة أكبر منه، كما أننا في الدنيا أفضل منهم، فوبخهم الله فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾(٤).

الإعراب:

الكاف في قوله تعالى (كالمجرمين): في موضع نصب مفعول ثان.

ما: في موضع رفع بالابتداء، وهي أسم تام. وخبرها شبه الجملة من الجار والمجرور في محل رفع.

كيف: في موضع نصب على الحال بـ (تحكمون)(٥).

الأوجه البلاغية:

في المسلمين والمجرمين طباق، وهو من المحسنات البديعية(٦).

---

(١) ينظر: بتصرف معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢٠٠/٥، صفوة التفاسير: ٣٩٦/٣.

(٢) سورة القلم الآيتان: ٣٤-٣٥.

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢٠٩/٥.

(٤) ينظر: المصدر نفسه.

(٥) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ١٣/٥،التبيان في غريب إعراب القرآن للعكبري: ٤٥٤/٢.

(٦) ينظر: صفوة التفاسير: ٤٠٧/٣.

المعنى الإجمالي:

يوبخ سبحانه وتعالى من أدعى المساواة بين المطيع والعاصي، والمحسن والمجرم. وقد تعجب الباري من صنيعهم يساوون بين المطيع والعاصي، وبين المؤمنين والكافرين، لأن مثل هذا لا يصح صدوره عن ذي لب، فكيف يدعون أن الله تبارك وتعالى يأتي مثل ما يأتون وهو المنزه عن كل ما لا يليق من ظلم ونحوه(١).

وقال تعالى ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾(٢).

معاني الألفاظ:

كان ميتاً فأحييناه:أي كان كافراً، أو ضالاً فهديناه، أو أحييناه بالإيمان(٣).

وهذا التعبير جائز في خطاب الناس، يقول القائل لمن لا يفقه عنه ما فيه صلاحه: أنت ميت(٤).

جعلنا له نوراً :جعلنا له إيماناً .

يمشي به في الناس: أي يهتدي به.

كمن مثله في الظلمات: أي في الكفر(٥).

مثله: صفته(٦).

سبب النزول:

روى الواحدي بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا جهل بن هشام رمى رسول الله ﷺ بفرث، وحمزة لم يؤمن بعد، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل، وهو راجع من قنصه، وبيده قوس، فأقبل غضبان، حتى علا أبا جهل بالقوس، وهو يتضرع إليه ويقول يا أبا يعلى: أما ترى ما جاء به: سفه عقولنا، وسب آلهتنا، وخالف آباءنا.

---

(١) ينظر بتصرف: صفوة التفاسير: ٤٠٥/٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

(٣) ينظر: الوجوه والنظائر: ٢٣٤ و ٢٣٧-٢٣٨، معاني القرآن للفراء: ٣٥٣/١، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ١٥٩، وتفسير المشكل لمكي بن أبي طالب: ٧٩ و ١٩٩.

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣٦٩/٤.

(٥) ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ١٥٩.

(٦) ينظر: تفسير البيضاوي: ٣١٩/١.

قال حمزة: ومن أسفه منكم؟! تعبدون الحجارة من دون الله، أشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له، وان محمداً عبده ورسوله، فأنزل الله هذه الآية.

وروى الواحدي بإسناده عن زيد بن أسلم في قوله ﷻ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ قال: عمر بن الخطاب ﵁.

﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا ﴾قال: أبو جهل بن هشام(١).

وقيل: نزلت الآية في عمر أو عمار رضي الله عنهما. وأبي جهل(٢).

(ويجوز أن تكون هذه الآية عامة لكل من هداه الله، ولكل من أضله الله، فأعلم الله ﷻ أن مثل المهتدي مثل الميت الذي أحيي وجعل مستضيئاً يمشي في الناس بنور الحكمة والإيمان، ومثل الكافر مثل من هو في الظلمات لا يتخلص منها)(٣).

القراءات:

روى المسيبي عن نافع بن أبي نعيم (أومن) بإسكان الواو، كان ميتاً فأحييناه.

وقال أبو جعفر النحاس: يجوز أن يكون محمولاً على المعنى: أي أنظروا وتبينوا أغير الله أبتغي حكماً أو من كان ميتاً فأحييناه، ومن فتح الواو جعلها واو عطف دخلت عليها ألف الاستفهام(٤).

وقرأ نافع ويعقوب (ميتاً) على الأصل(٥).

الإعراب:

من: اسم موصول بمعنى الذي في موضع رفع لأنه مبتدأ. والكاف في قوله تعالى (كمن) خبره.

كان: فعل ماض ناقص يدخل على المبتدأ والخبر فيرفع الأول ويسمى اسماً له وينصب الثاني ويسمى خبراً له.

واسم كان ضمير مستتر جوازاً تقديره (هو) يعود على من وهو في محل رفع.

---

(١) ينظر: أسباب النزول للواحدي: ١٨٣-١٨٣.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي: ٨١٩/١.

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢٢٨/٢.

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٩٤/٢.

(٥) ينظر: تفسير البيضاوي: ٣١٩/١.

وميتاً : خبر كان منصوب بالفتحة الظاهرة.

وكان وأسمها (الضمير المستتر جوازاً) وخبرها: صلة الموصول (من)

مثله: مثل مبتدأ مرفوع بالضمة. وهو مضاف. والهاء ضمير متصل مبني على الضم في محل جر مضاف إليه.

في الظلمات: شبه جملة من الجار والمجرور في محل رفع خبر (مثله).

ليس بخارج منها: هذه الجملة في محل نصب على الحال من الضمير المحذوف في الجار والمجرور (في الظلمات).

ولا يجوز أن يكون حالا من الهاء في (مثله) ففصل بينه وبين الحال بالخبر(١).

الأوجه البلاغية:

فيها استعارة، فقد استعار الموت للكفر، والحياة للإيمان، وكذلك النور والظلمات للهدى والضلال(٢).

المعنى الإجمالي:

شبه الله سبحانه مقام المؤمن بالحي الذي له نور يتصرف به كيفما سلك، وشبه الكافر بالمتخبط في الظلمات، المستقر فيها، ليتجلى الفرق بين المؤمن والكافر، وشتان بين من كان كافراً ضالاً، فأحيا الله قلبه بالإيمان، وأنقذه من الضلالة بالقرآن، النور الوضاء الذي يميز به بين الحق والباطل، كمن يتخبط في ظلمات الكفر والضلالة، لا يعرف المنقذ من المخلص.

قال البيضاوي: وهذا مثل لمن بقي على الضلالة، لا يفارقها بحال(٣).

الفائدة من الآية:

إن الإيمان هو أحد مقاييس التفاضل بين البشر، إذ لم يساوي الله بين المؤمن والكافر. فشبه الله المؤمن بالحي، والكافر بالميت، وما أعظم الفرق بينهما لمن وعى.

---

(١) ينظر: التبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ١/٣٣٧-٣٣٨،والتبيان في غريب إعراب القرآن للعكبري: ١/٥٣٦ وتفسير البيضاوي: ١/٣١٩.

(٢) ينظر: صفوة التفاسير: ١/٣٨٦-٣٨٧.

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي: ١/٣١٩، وصفوة التفاسير: ١/٣٨٥.

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾(١).

الأعمى: هو أعمى القلب، وهو الكافر، فلا يبصر الهدى(٢) بقلبه.

البصير: يعني بصير القلب بالإيمان، وهو المؤمن(٣).

روي عن ابن عباس في معنى العمى والبصير قال: المؤمن والكافر(٤).

قوله تعالى ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾: هذا مثل لعدم مساواة الكافر والمؤمن، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾(٥).

الظلمات: الضلالات(٦).

النور: الهدى.

الظل: الجنة.

الحرور: النار(٧).

وقيل الحرور: استيقاد الحر ولفخه بالنهار وبالليل. أما السموم فلا يكون إلا بالنهار(٨).

وقيل: الحرور لا يكون إلا بالليل، والسموم يكون بالنهار.

---

(١) سورة فاطر الآيات: ١٩-٢٢.

(٢) ينظر: الوجوه والنظائر: ٢٣٢.

(٣) ينظر: الوجوه والنظائر: ٢٣٢.

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٣/٣٧٠.

(٥) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/٢٦٧ وتفسير المشكل لمكي بن أبي طالب: ١٩٩. والآية من سورة الأنعام: ١٢٢.

(٦) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/٢٦٤ وإعراب القرآن للنحاس: ٣/٣٧٠.

(٧) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٣/٣٧٠.

(٨) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/٢٦٨.

وقيل: الحرور يكون فيهما، وهذا أصح القولين، لأن الحرور فعول من الحر. وفيه معنى التكثير: أي الحر المؤذي(١).

﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ ﴾: هذا مثل للمؤمنين والكفار، فالمؤمنون بمنزلة الأحياء، والكفار بمنزلة الأموات(٢).

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ ﴾(٣).

وقيل هذا مثل ضربه الله للعقلاء والجهال(٤). أو للغافلين والمستبصرين(٥).

القراءات:

قرأ الحسن ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ بحذف التنوين في قوله تعالى (بمسمع) تخفيفاً .

أي هم بمنزلة أهل القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه(٦).

الإعراب:

لا في قوله تعالى (ولا النور)، وفي قوله تعالى: (ولا الحرور) زائدة. لأن معنى الظلمات لا تساوي النور وكذلك (لا) في قوله تعالى (ولا الأموات) زائدة لأن المعنى: وما يستوي الأحياء والأموات(٧). ومع كونها زائدة إلا أنها أفادت التوكيد. ومعنى ذلك أنه لا يمكن مساواة المؤمنين للكافرين بأية حال من الأحوال.

الأوجه البلاغية:

في هذه الآيات طباق بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات(٨).

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٣/٣٦٩-٣٧٠.

(٢) ينظر: الوجوه والنظائر: ٢٣٤-٢٣٥ و ٢٣٨.

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/٢٦٨، والآية من سورة النحل: ٢١.

(٤) ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٣٦١.

(٥) ينظر: تفسير البيضاوي: ٢/٣٤٤.

(٦) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٣/٣٧٠.

(٧) ينظر: المصدر نفسه والتبيان للعكبري: ٢/١٠٧٤.

(٨) ينظر: صفوة التفاسير: ٢/٥٢٧.

وفي قوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ استعارة تصريحية إذ شبه الله الكافر بالأعمى، والمؤمن بالبصير بجامع ظلام الطريق، وعدم الاهتداء على الكافر، ووضوح الرؤية والاهتداء للمؤمن.

تم استعارة المشبه به (الأعمى) للكافر، واستعار (البصير) للمؤمن بطريق الاستعارة التصريحية(١).

الفوائد المستنبطة من الآيات:

إنه لا يصح بحال مساواة المؤمنين الطائعين لأوامر الله تعالى ونواهيه، بالكافرين المتمردين على شرع الله، كما لا يصح عقلا مساواة الأعمى للبصير، والحي للميت، ونحو ذلك لأن الكافرين قد أعرضوا عن سماع الحق.

المعنى الإجمالي:

لا يستوي الأعمى عن الحق، وهو الكافر، والبصير بالحق، وهو المؤمن الذي يبصر رشده. وكما لا تستوي الظلمات والنور، فكذلك لا يستوي أصحاب الحق الذين هم في ظل من الحق، وأصحاب الباطل الذين هم في حر دائم مسهم لفحه ليلا ونهاراً(٢). وإن الله سبحانه قد جعل الكافرين بمنزلة أهل القبور الذين لا ينتفعون بما يسمعونه، ولا يقبلونه(٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤).

معنى الآية الإجمالي:

هل يتساوى الكافر والمؤمن، أو الضال والمهتدي، أو من اتبع ما أنزل الله من الوحي، ومن لم يتبع.

وفي قوله تعالى ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ تقريع وتوبيخ، أي أتسمعون أيها الكافرون فلا تتفكرون(٥).

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٥٢٨/٢.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢٦٧/٤-٢٦٨.

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٣٧٠/٣.

(٤) سورة الأنعام: ٥٠.

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٢٥/٢-٢٦ وصفوة التفاسير: ٣٦٣/١.

الفائدة من الآية:

فيها تهكم وتقريع من الباري ﷻ للكافرين الذين لم يتفكروا في آيات الله التي أنزلها، إذ انعدم عندهم المقياس الصحيح للتفاضل بين أهل الهداية وأهل الضلالة. ولكن ذوي الألباب يجدون البون عظيما بين منزلة المؤمنين والكافرين، كما يفرق العقلاء بين الأعمى والبصير.

وقال تعالى: ﴿ **مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ (١).

معاني المفردات:

كالأعمى والأصم: كمثل الأعمى والأصم(٢).

---

(١) سورة هود: الآية ٢٤.

(٢) ينظر: معاني القرآن للأخفش: ٢/٥٧٦.

والتقدير: مثل فريق الكافر كالأعمى والأصم، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير (١).

الإعراب:

مثل: مبتدأ مرفوع وهو مضاف.

الفريقين: مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى.

كالأعمى: شبه الجملة في الجار والمجرور في محل رفع خبر (٢).

مثلا: تمييز (٣).

المعنى الإجمالي:

جعل الله تبارك وتعالى مثل فريق الكافرين كالأعمى والأصم، لأنهم في عداوتهم وتركهم التفهم كمن لا يسمع ولا يبصر (٤).

وجعل الله تعالى مثل فريق المؤمنين كالبصير والسميع، لأنهم يتدبرون آيات الله، ولا يأتون إلا ما ينفعهم في دينهم ودنياهم من أجل أن يظفروا بسعادة الدارين.

الفائدة من الآية:

عدم مساواة المؤمنين للكافرين في المنزلة والكرامة، ولا يعلم هذا إلا من تذكر واعتبر.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ (٥).

معاني المفردات:

الأعمى: الكافر

البصير : المؤمن

الظلمات: الكفر

النور : الإيمان (١)

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢٧٨/٢ والتبيان للعكبري: ٦٩٤/٢.

(٢) ينظر: المصدرين نفسيهما. ينظر: التبيان للعكبري: ٦٩٤/٢.

(٣) ينظر: التبيان للعكبري: ٦٩٤/٢.

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤٦/٣.

(٥) سورة الرعد، الآية: ١٦.

القراءات:

أم هل تستوي: قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي، بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء (تستوي) لأنه حائل بين الفعل والمؤنث(٢).

المعنى الإجمالي:

كما لا يستوي الأعمى والبصير كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، وكما لا تستوي الظلمات والنور، فلا يستوي الكفر والإيمان(٣).

الفائدة من الآية:

لا يمكن في نظر العقلاء أن يساووا بين المؤمن والكافر، كما لم يساووا بين النور والظلمة، لأن الفارق بين هذه الأشياء واضح جداً لكل ذي بصيرة. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٤).

معاني المفردات:

ولا تنكحوا: لا تتزوجوا(٥).

المشركات: الكافرات، وهن كل من كفر بالنبي ﷺ. واللغة تطلق على كل كافر أن يقال له مشرك(٦).

الأمة: المرأة المملوكة، غير الحرة.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٣٥٥/٢.

(٢) ينظر: الإقناع: ٦٧٥/٢، وتفسير البغوي: ١٣/٣، والتبيان للعكبري: ٧٥٦/٢.

(٣) ينظر: تفسير البغوي: ١٣/٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.

(٥) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١٤٣/١ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢٩٥/١.

(٦) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢٩٥/١ وينظر إعراب القرآن للنحاس: ٣١٠/١.

ولو أعجبتكم: كقوله: وإن أعجبتكم. ولو، وإن متقاربان في المعنى، ولذلك جاز أن يجازى لو بجواب إن وإن بجواب لو(١). إلا أنت (لو) تأتي فتتوب عن إن في الفعل الماضي(٢).

ولا تنكحوا المشركين: أي لا تزوجوا المشركين المسلمات حتى يؤمنوا(٣).

سبب نزول الآية:

روى الواحدي بإسناده عن مقاتل بن حيان قال: نزلت في أبي مرثد الغنوي، أستأذن النبي ﷺ في عناق أن يتزوجها، وهي امرأة مسكينة من قريش، وكانت ذات حظ من جمال وهي مشركة، وأبو مرثد مسلم، فقال يا نبي الله إنها لتعجبني، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾.

وروى الواحدي بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: نزلت في عبدالله بن رواحة، وكانت له أمة سوداء، وإنه غضب عليها فلطمها، ثم إنه فزع، فأتى النبي ﷺ فأخبره خبرها، فقال له النبي ﷺ: ما هي يا عبدالله؟ فقال: يا رسول الله، هي تصوم وتصلي وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال: يا عبدالله هذه مؤمنة. قال عبدالله: فوالذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، فقال: أنكح أمة، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ﴾ الآية.

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من غنى، يقال له مرثد بن أبي مرثد حليفاً لبني هاشم إلى مكة ليخرج ناساً من المسلمين بها أسراء، فلما قدمها سمعت به امرأة يقال لها عناق، وكانت خليلة (زانية) له في الجاهلية، فلما أسلم أعرض عنها فأتته فقالت: ويحك يا مرثد ألا تخلو،

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/١٤٣.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/٢٩٦.

(٣) ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٨٣-٨٤ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/٢٩٦. وإعراب القرآن للنحاس: ١/٣١٠.

فقال لها: إن الإسلام قد حال بيني وبينك وحرمه علينا، ولكن إن شئت تزوجتك إذا رجعت إلى رسول الله ﷺ استأذنته في ذلك ثم تزوجتك، فقالت له: أنت تبترم، ثم استغاثت عليه فضربوه ضرباً شديداً، ثم خلوا سبيله، فلما قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله ﷺراجعاً وأعلمه الذي كان من أمره وأمر عناق، وما لقي بسببها، فقال: يا رسول الله أتحل أن أتزوجها، فأنزل الله ينهاه عن ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ (١).

ويحمل تعدد هذه الأسباب، على تعدد أسباب النزول مع اتحاد النازل. إذ قد يعالج النص القرآني مشكلات وقعت لأكثر من واحد من المسلمين.

القراءات:

ولو قرئت ولا تنكحوا (بضم التاء) المشركات كان وجها صحيحاً، وإن لم يعلم أن أحداً قرأ بها.

ومعناها عندئذ ولا تزوجوهن المسلمين(٢).

ثم أجل تزويج نساء أهل الكتاب من بين الكفار للمسلمين، فقال تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (٣).

وقرأ الحسن ﴿ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴾.

وقرأ أبو العالية: ﴿ وَٱلْمَغْفِرَةِ ﴾(٤).

الإعراب:

﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾ مبتدأ وخبر

وكذا

---

(١) ينظر: أسباب النزول للواحدي: ٦٥-٦٦.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/١٤٣ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/٢٩٥.

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/٢٩٥ والآية من سورة المائدة الآية: ٥.

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ١/٣١٠.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

وكذا

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ وكذا

﴿وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ على قراءة الحسن.

وعلى قراءة أبي العالية فإن (المغفرة) بالجر تعرب عطفاً على الجنة، وهذا ما ذهب إليه جماهير القراء(١).

المعنى الإجمالي للآية:

لا تتزوجوا المشركات حتى يؤمن، وإن المرأة المملوكة إذا كانت مؤمنة هي خير للمؤمن من المشركة، وإن أعجبته المشركة لم لها من صفات ترغب في نكاحها من جمال أو مال أو حسب أو غير ذلك من حظوظ الدنيا.

ومنع الله المؤمنين أن يزوجوا المسلمات إلى أحد من المشركين، لأن الكافر ليس كفؤاً للمؤمنة.

وإن العبد المملوك أذا كان مؤمناً لهو خير من الحر المشرك، وإن أعجبنا أمر المشرك في الدنيا.

(لأن الكافر والكافرة يدعوان إلى النار، أي يعملان بأعمال أهل النار، فكأن نسلكم يتربى مع من هذا حاله)(٢).

الفوائد المستنبطة من هذه الآية:

١. يحرم على المسلم أن يتزوج كافرة إلا إذا كانت من أهل الكتاب، وإن كان بخلاف الأولى.
٢. إن الكفاءة المرعية في الزواج هي كفاءة الدين بالدرجة الأساس، وما بعدها تأتي تبعاً أو ثانويا لا يؤثر في المنع من الزواج. على الوجه الشرعي.

---

(١) ينظر: المصدر نفسه.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢٩٦/١.

٣. إن أدنى المسلمين من حيث الدرجة الاجتماعية هو أعلى قدرا من أعلى المشركين مكانة سواء كانوا رجالاً أو نساًء وسواء كانوا أحراراً أم عبيدا. لأن المقياس في التفاضل يبنى أصلا على الإيمان بالله تعالى وبرسالته.

وقال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾(١).

معاني الألفاظ:

إني متوفيك قابضك.

ورافعك إلي: رافعك إلى كرامتي(٢).

(متوفيك ورافعك إلي، كلاهما للمستقبل، ولا يتعرفان بالإضافة، والتقدير: رافعك إلي ومتوفيك، لأنه رفع إلى السماء، ثم يتوفى بعد ذلك)(٣).

وقيل: الواو تفيد الجمع ولا تفيد الترتيب، فلا فرق بين التقديم والتأخير بين متوفيك ورافعك(٤).

وقيل: متوفيك من بينهم معناها رافعك إلى السماء، فلا تقديم في كلام الله ولا تأخير بين متوفيك ورافعك(٥).

وجاعل الذين اتبعوك: هذا خطاب لنبينا محمد ﷺ لأن كل ما في القرآن من المخاطبة فهي له، إلا أن يثبت بدليل أن الخطاب لغيره(٦).

وقيل: هو خطاب لعيسى ﷺ.

ومعنى الآية على هذا: (إن الذين اتبعوه ظاهرون على اليهود، وغيرهم من الكفار إلى يوم القيامة بالملك والغلبة.

فأما يوم القيامة فيحكم بينهم فيجازي كلا على عمله)(١).

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٥٥.

(٢) ينظر: التبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ١/٢٠٦.

(٣) ينظر: التبيان للعكبري: ١/٢٦٥.

(٤) ينظر: التبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ١/٢٠٦-٢٧ والتبيان للعكبري: ١/٢٦٥.

(٥) ينظر: التبيان للعكبري: ١/٢٦٥.

(٦) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ١/٣٨١ والتبيان للعكبري: ١/١٦٥.

معنى: فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة

فيه قولان:

أحدهما: أنهم فوقهم في الحجة وإقامة البرهان.

والآخر: أنهم فوقهم في اليد والبسطة والغلبة(٢).

القراءات:

جاعل: بطرح التنوين، والتنوين جائز، ولكن لا تقرأ الآية بالتنوين إلا أن يثبت التنوين برواية صحيحة عن النبي ﷺ(٣).

الإعراب:

إذ: تتعلق بفعل مقدر، تقديره: اذكر أني متوفيك ورافعك إلي.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾

إما أن يكون معطوفاً على الأول ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ، وكلاهما لعيسى.

وإما أن يكون معطوفاً على ما قبله ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾ (٤) وما قبله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ خطاب لعيسى(٥).

المعنى الإجمالي:

أكد الله جلت قدرته أنه رفع عيسى ﵇ إلى السماء، ليخلصه من أذى الكافرين من اليهود الذين انتقصوا قدره وأساءوا إليه وإلى أمه الطاهرة ليرفع كرامته، وليجعل مكانة أتباعه فوق الذين كفروا، أو أن يجعل مكانة نبينا محمد ﷺ والمؤمنين به فوق الكافرين إلى يوم القيامة.

الفائدة من الآية:

---

(١) ينظر: التبيان للعكبري: ٢٦٥/١-٢٦٦.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤٢٠/١.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤٢٠/١.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٤٣.

(٥) ينظر: التبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ٢٠٦-٢٠٧.

١. إثبات رفع الله تعالى عيسى عليه السلام إلى السماء وهذا أمر مجمع عليه بين المسلمين. والجمهور على أنه قد رفع حيا، وقال بعضهم. إن الله تعالى قد توفاه، ثم رفعه إلى السماء، ثم سينزله حيا إلى الدنيا ليحكم بشريعة الإسلام التي بلغها رسول الله ﷺ.

٢. إن مكانة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم فوق مكانة الكافرين بالرسالات السماوية إلى يوم القيامة.

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ (٨٢) وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ (١).

معاني الألفاظ:

لم يلبسوا إيمانهم بظلم: أي لم يخلطوه بشرك(٢).

تلك حجتنا: إشارة إلى ما احتج به إبراهيم على قومه، فيما أرشده إليه، وأعلمه إياه. حتى خصمهم، وغلبهم بالحجة(٣).

وذلك أنهم قالوا له: أما تخاف أن تخبلك آلهتنا لسبك إياها؟ فقال لهم: أفلا تخافون أنتم ذلك منها: إذ سويتم بين الصغير والكبير والذكر والأنثى أن يغضب الكبير: إذ سويتم به الصغير. ثم قال لهم: أمن يعبد إلها واحدا أحق أن يأمن أم من يعبد آلهة شتى ؟ قال: من يعبد إلها واحدا، فغضبوا على أنفسهم، فذلك قوله: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ ﴾(٤).

قوله تعالى ﴿ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ ﴾: بالعلم والفهم والحكمة والفضيلة والعقل(٥).

إن ربك حكيم: في رفعه وخفضه وفي أقواله وأفعاله.

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٢-٨٣.

(٢) ينظر: الوجوه والنظائر: ١٠٢ وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ١٥٦، وتفسير المشكل من غريب القرآن لمكي بن أبي طالب: ٧٧ وتفسير البغوي: ١١٢/٢.

(٣) ينظر: تفسير البغوي: ١١٢/٢ وتفسير البيضاوي: ٣٠٩/١.

(٤) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣٤١/١.

(٥) ينظر: تفسير البغوي: ١١٢/٢ وتفسير البيضاوي: ٣٠٩/١.

عليم: بحال من يرفعه واستعداده له وبمن يهديه ومن يضله وإن قامت عليه الحجج والبراهين(١).

سبب النزول:

روى البغوي بإسناده عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شق ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله: فأينا لا يظلم نفسه؟ فقال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلى ما قال لقمان لابنه وهو يعظه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾(٢).

القراءات:

نرفع: يقرأ بالنون والياء، وكذلك في نشاء، والمعنى ظاهر(٣).

درجات: قرأها الكوفيون ويعقوب بالتنوين.

وتقديرها: ونرفع من نشاء إلى درجات ثم حذفت إلى.

وقرأ الباقون ﴿دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالإضافة، بدون تنوين وهي قراءة أهل الحرمين وأبي عمرو.

وكذا قرئت ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ في سورة يوسف الآية٧٦(٤). قال ابن كثير: وكلاهما قريب في المعنى(٥).

الإعراب:

الذين: مبتدأ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم: صلة الموصول.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ١٤٦/٢ وتفسير البيضاوي نفسه.

(٢) ينظر: تفسير البغوي: ١١٢/٢. الآية: ١٣ من سورة لقمان واصل هذه الرواية في الصحيح: إذ روى البخاري بسنده عن عبدالله بن مسعود قال: لما نزلت: ولم يلبسوا أيمانهم بظلم، قال أصحابه: وأينا لم يظلم فنزلت ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ٣٧٣/٨.

(٣) ينظر: التبيان للعكبري: ٥١٥/١.

(٤) ينظر: الإقناع في القراءات السبع: ٦٤/٢ وإعراب القرآن للنحاس: ٧٩/٢ وتفسير البغوي: ١١٢/٢، والتبيان للعكبري: ٥١٥/١ وتفسير البيضاوي: ٣٠٩/١.

(٥) ينظر: تفسير ابن كثير: ١٤٦/٢٠.

أولئك بدل من الذين، أو مبتدأ ثان.

الأمن: مبتدأ ثالث. وقيل: ثان.

لهم: خبر الأمن.

والأمن وخبره: خبر ما قبلها (الذين)(١).

وهم مهتدون: الضمير (هم) مبتدأ.

مهتدون: خبره مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم.

وتلك حجتنا: تلك مبتدأ

وحجتنا: خبر(٢).

وتعرب حجتنا: بدلا من تلك(٣).

آتيناها تعرب على وجهين.

الوجه الأول: أنها تعرب خبرا عن المبتدأ.

الوجه الثاني: أنها تعرب في موضع الحال من الحجة. وأن تكون حجتنا خبر تلك.

إبراهيم: مفعول ثان لـ (آتى).

على قومه: متعلق بمحذوف أي (آتينا إبراهيم حجة على قومه أو دليلا).

نرفع: يجوز أن يكون في موضع الحال من آتيناها، ويجوز أن يكون مستأنفاً(٤).

درجات: منصوب بـ (نرفع) على الظرفية، وحرف الجر محذوف منها.

وتقديره: إلى درجات.

ومن قرأ بغير تنوين: تعرب درجات مفعولا به.

والعامل فيه نرفع، وأضافها إلى من(٥).

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٧٩/٢، والتبيان في غريب القرآن لابن الأنباري: ٣٢٩/١، والتبيان للعكبري: ٥١٤/١-٥١٥.

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٧٩/٢.

(٣) ينظر: التبيان للعكبري: ٥١٤/١.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٥١٤/١-٥١٥ وتفسير البيضاوي: ٣٠٩/١.

(٥) ينظر: التبيان في غريب إعراب القرآن: ٣٢٩/١، والتبيان للعكبري: ٥١٤/١-٥١٥.

المعنى الإجمالي:

إن للذين لم يشركوا بالله تعالى شيئا من عذابه، وهم على طريق الهداية.

وما أوتيه إبراهيم ﷺ من الحجج النيرة على إثبات وحدانية الله لقومه، وإفحامه لقومه، كان بسبب ما وهب الله ﷻ له من العلم والفهم والفضيلة والحكمة والعقل(¹).

وقال تعالى﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾(²).

معاني المفردات:

الدواب: ما يدب على وجه الأرض من أنواع الحيوانات، وأراد الله هنا بهم بعض البشر، لعد تعقلهم لما فيه رشادهم.

عند الله: في علم الله وحكمه.

الذين كفروا: الذين جحدوا رسالة الإسلام.

فهم لا يؤمنون: عنى الله بهم الذين لا يؤمنون أبدا، بل هم مصرون على الكفر، متمادون في الباطل، ولا يرجعون عن الغواية أصلاً.

سبب النزول:

نزلت الآية في بني قريظة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ أكثر من مرة، ألا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك، بل ألبوا الكفار على المسلمين. ومنهم كعب بن الأشرف وأصحابه(³).

الإعراب: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾: اسم إن وخبرها، وهو مخصوص وقد بينه ﷻ بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴾(⁴).

المعنى الإجمالي:

(¹) ينظر: بتصرف تفسير البغوي: ١١٢/٢.

(²) سورة الأنفال: الآية: ٥٥.

(³) ينظر: فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني: ٢٩٨/٢ وصفوة التفاسير: ٤٧٣/٢ وقد نقل الصابوني سبب النزول عن زاد المسير: ٣٧١/٣.

(⁴) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ١٩١/٢. والآية من سورة الأنفال: ٥٦.

إن شر ما يدب على وجه الأرض، الذين جحدوا رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ مع كونهم مصرين على الكفر والغواية والضلال ما عاشوا، ولا يرجى منهم الإيمان أبداً .

ومفهوم المخالفة من هذه الآية يستلزم أن من آمن بالله ورسوله محمد ﷺ بعد ظهور رسالة الإسلام يكون من خير الناس، وأثبتت هذه الآية الكريمة أن أهم مقياس للتفاضل بين البشر هو الإيمان لأن سائر البشر من دون المؤمنين وإن كانوا من العلماء، وقد تكون لهم خصال حميدة أخرى، إلا أن ما يفسدونه أكثر مما يعمرونه، ونراهم يسترقون البشر إذا ما امتلكوا ناصية العلم والقوة.

وقال تعالى:﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

معاني المفردات:

أبغيكم: أصلها: أبغي لكم، ومعناها: أطلب لكم(٢).

العالمين: أي على عالمي زمانكم(٣).

الإعراب:

قال: فعل ماض، والفعل ضمير مستتر جوازا تقديره هو، يعود على موسى عليه السلام.

والجملة كلها بعد الفعل في محل نصب مقول القول.

أغير الله: الهمزة حرف استفهام أفادت الإنكار.

غير: فيه وجهان:

الوجه الأول: أن تكون (غير) مفعول أبغيكم، وتقدير الآية: أبغي لكم (فحذف اللام) غير الله.

والها: منصوب على البيان، أو أنها تمييز.

الوجه الثاني: (غير) صفة لـ (إلها) قدمت عليه، فصارت حالا. وعليه تعرب (إلها) مفعول أبغيكم.

وهو: الواو يجوز أن تكون واو الحال، أو للاستئناف.

هو: ضمير في محل رفع مبتدأ.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٠.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣٧٢/٢ وتفسير البغوي: ١٩٤/٢-١٩٥.

(٣) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن للطبري: ٣٢/٩ وتفسير البغوي: ١٩٤/٢-١٩٥.

وخبره الجملة الفعلية (فضلكم) في محل رفع(١).

سبب النزول:

روى البغوي بسنده عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع النبي ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما كان للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾(٢)، لتركبن سنن من قبلكم(٣).

المعنى الإجمالي:

قال موسى عليه السلام لقومه وقد طلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً غير الله، كما كان لغيرهم آلهة سوى الله: أسوى الله التمس لكم إلهاً تعبدونه، ولا يضركم ولا ينفعكم، وتتركون الله سبحانه الذي خلقكم وفضلكم على عالمي دهركم أو زمانكم، بسبب إيمانكم به وحده، إن هذا منكم لجهل(٤).

الفوائد:

إن سبب تفضيل الله سبحانه لبني إسرائيل قوم موسى عليه السلام على العالمين، كان بسبب إيمانهم بالله وحده، وإن هذا التفضيل لبني إسرائيل على سائر الناس خاص بزمانهم ودهرهم، وليس مطلقاً كما يزعمون على اختلاف الأزمان والدهور.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾(٥).

مناسبة الآية:

لما بين تعالى حال الكافرين المجرمين في الآخرة، وحال المؤمنين المتقين، وما أعده الله للكافرين من العذاب الأليم، وما أعده الله للمؤمنين من النعيم بين سبحانه في هذه الآية أنه لا يتساوى الفريقان فريق البررة، وفريق الكفرة لأن عدالة الله تستلزم عدم

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ١٤٧/٢ والتبيان للعكبري: ٥٩٣/١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

(٣) ينظر: تفسير البغوي: ١٩٤/٢-١٩٥.

(٤) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن للطبري: ٣٢/٩.

(٥) سورة السجدة، الآية ١٨.

مكافأة الطرفين بأمر واحد، بل لكل حقه من نعيم أو عذاب حسب اختلافهم في إتيان الخير والشر(١).

معاني المفردات:

من: لفظها لفظ واحد، وهي تدل على الواحد، وعلى الجماعة(٢).

لا يستوون: أي لا يستوي المؤمنون والكافرون.

فاسقا: الفاسق هو الخارج عن طاعة الله(٣)، سواء كان كافرا أو عاصيا لأوامر الله وإن كان مؤمنا بموجبها وأريد به هنا الكافر ويجوز أن يكون (يستوون) للاثنين، لأن معنى الاثنين جماعة، لأنه واحد جمع مع آخر. ولو قال: لا يتساويان لكان جائزاً(٤).

الإعراب:

لا يستوون: إنها كلام مستأنف، لا موضع له(٥).

سبب النزول:

قال الواحدي: نزلت في علي بن أبي طالب، والوليد بن عقبة، فروى الواحدي بإسناده عن ابن عباس: قال: (قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنا أحد منك سناناً، وأبسط منك لساناً، وأملأ للكتيبة منك، فقال له علي: اسكت، فإنما أنت فاسق، فنزل: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾. قال: يعني بالمؤمن عليا، والفاسق الوليد بن عقبة(٦).

معنى الآية إجمالاً:

بين تعالى أنه لا يساوي في حكمه وعدله يوم القيامة بين من كان مؤمنا بآيات الله متبعا لرسله في الدنيا، وبين من كان خارجا عن أوامر الله مكذبا لرسله. فكما لم

---

(١) ينظر: صفوة التفاسير: ٤٦٣/٢.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢٠٨/٤، وتفسير القرطبي: ١٠٦/١٤.

(٣) ينظر: صفوة التفاسير: ٤٦٣/٢.

(٤) ينظر: المصدرين نفسيهما.

(٥) ينظر: التبيان للعكبري: ١٠٤٩/٢.

(٦) ينظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٩١ ومعاني القرآن وإعرابه: ٢٠٨/٤، وتفسير القرطبي: ١٠٥/١٤، وتفسير ابن كثير: ٤٤٥/٣.

يتساووا في الدنيا بالطاعة والمعصية فكذلك لا يساوي الله بينهم بالكرامة أو بالعذاب الأليم يوم يلقونه(١).

الفوائد:

نفى المساواة بين المؤمن والكافر، ولهذا منع القصاص بينهما. إذ من شروط وجب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول، وبذلك احتج العلماء على أبي حنيفة فيما ذهب إليه من قتل المسلم بالذمي(٢).

المبحث الثاني

التفاضل بين الناس بسبب اختلافهم في الأعمال الصالحة والطالحة، والتقوى

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: التفاضل بسبب اختلاف الناس في الأعمال الصالحة والطالحة

المطلب الثاني: التفاضل بين الناس بسبب تباينهم في التقوى

المطلب الأول

التفاضل بسبب اختلاف الناس في الأعمال الصالحة والطالحة

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ (٣).

معاني المفردات:

الإيمان: التصديق(٤).

البرية: الخليقة(٥).

القراءات:

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ٤٤٥/٣.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي

(٣) سورة البينة، الآية: ٧.

(٤) ينظر: الوجوه والنظائر: ١٢٥ وقد سبق تعريف الأيمان لغة وشرعا

(٥) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢٧٤/٥ وتفسير البيضاوي: ٦١٣/٢.

قرأ نافع البريئة بالهمز على الأصل في اللغة، إذ رأى أنها مشتقة من برأ الله الخلق، أي ابتدأه، وهي فعلية بمعنى مفعولة. إلا أن الهمزة خففت لكثرة الاستعمال.

وذهب جماهير القراء إلى ترك الهمز في قراءتها مع تشديد الياء، وهو المشهور من كلام العرب، كما يقرأ (النبي)، وقال من لم يهمزها: أنها مشتقة من البرى، وهو التراب[1].

ويستدل لما رآه الجمهور بما رواه أبو داود السجستاني بإسناده عن أنس بن مالك ﵁ قال: (قال رجل لرسول الله ﷺ: يا خير البرية، فقال: ذلك إبراهيم ﵇ [2].

الأوجه البلاغية:

١. في هذه السورة طبقات بين (خير البرية) و (شر البرية).
٢. توافق الفواصل مثل خير البرية، وشر البرية ونحو ذلك وهي من المحسنات البديعية.

المعنى الإجمالي: أكد تعالى أن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح هم خير البرية.

فوائد الآية:

١. إن من مقاييس التفاضل بين الناس الإيمان والعمل الصالح، ومن جمع بينهما فقد سبق الخلائق بالفضل.
٢. وقال أبو جعفر النحاس: (ولا معنى لاحتجاج من أحتج بأن الأنبياء (صلوات الله عليهم) والمؤمنين أفضل من الملائكة (صلوات الله عليهم) بهذه الآية، لأن الملائكة من الذين آمنوا وعملوا الصالحات)[3].

لكن الإجماع قائم على سيدنا رسول الله ﷺ أفضل الخلائق كلها.

---

[1] ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣٥٠/٥ وإعراب القرآن للنحاس: ٢٧٤/٥ والتبيان للعكبري: ١٢٩٨/٢، وتفسير البيضاوي: ٦١٣/٢.

[2] ينظر: سنن أبي داود السجستاني: حديث رقم ٦٤٧٢.

[3] ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢٧٤/٥.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾(١).

معاني المفردات:

وما يستوي الأعمى والبصير: أي لا يستوي الكافر والمؤمن كما سبق بيانه.

قليلاً ما تذكرون: أي أقل ما يتذكر كثير من الناس(٢).

والضمير في قوله تعالى (تتذكرون) للناس أو للكفار(٣).

القراءات:

تتذكرون: قرأها الكوفيون بتاءين على تغليب المخاطب، أو الألتفات أو أمر الرسول ﷺ، وقرأها الآخرون بالياء والتاء(٤).

الإعراب:

لا في قوله تعالى (ولا المسيء): زائدة(٥).

قليلا: صفة منصوبة لمصدر محذوف تقديره: تذكر قليلا تتذكرون.

ما: زائدة.

ومعناه: لا تذكر لهم، لأنه قد يطلق لفظ القلة، ويراد بها النفي كقوله: قلما تأتيني، وأنت تريد: ما تأتيني(٦).

والعاطف الثاني عطف الموصول بما عطف عليه على الأعمى والبصير لتغاير الوصفين في المقصود، أو الدلالة بالصراحة والتمثيل(٧).

الأوجه البلاغية:

١. فيها طباق بين الأعمى والبصير.

---

(١) ينظر: سورة غافر: الآية ٥٨.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: ٤/٨٦–٨٧ وتفسير البيضاوي: ٢/٣٤٤.

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي: ٢/٣٤٤.

(٤) ينظر: الإقناع في القراءات السبع: ٢/٧٥٤ وتفسير البيضاوي: ٢/٣٤٤.

(٥) ينظر: التبيان للعكبري: ٢/١١٢١.

(٦) ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ٢/٣٣٣.

(٧) ينظر: تفسير البيضاوي: ٢/٣٤٤.

٢. فيها استعارة لطيفة ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ استعارة الأعمى للكافر، والبصير للمؤمن(١).

المعنى الإجمالي:

كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئا، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار الذين يفعلون الصالحات، والكفرة الفجار الذين يعملون الموبقات(٢).

الفوائد:

ينبغي أن يكون للمحسنين والمسيئين حال يظهر فيها التفاوت، يوم القيامة في الفضل والكرامة(٣). لأن الجزاء في اليوم الآخر من جنس الأعمال التي يأتيها البشر في دنياهم فإن كانت أعمالهم خيرا فينالهم الخير الجزيل، وإن كانت أعمالهم شرا لحقهم شر وبيل. وهذا من عدل الله المطلق.

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾(٤).

معاني الألفاظ:

باء: رجع

بسخط: بغضب شديد

مأواه: منزله ومثواه(٥).

هم درجات عند الله: أي هم في الفضل مختلفون، بعضهم أرفع من بعض(٦). أو لكل واحد منهم حظه وعمله(١). وأصل الكلام: هم ذوو درجات عند الله، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه(٢). والفاء حرف أفاد الاستئناف.

---

(١) ينظر: صفوة التفاسير: ١٠٤/٣.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: ٨٦/٤-٨٧.

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي: ٣٤٤/٢.

(٤) سورة آل عمران الآيتان: ١٦٢-١٦٣.

(٥) ينظر: صفوة التفاسير: ٢١٩/١.

(٦) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢٤٦/١ وينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ١١٥.

أفمن اتبع: الهمزة حرف استفهام للإنكار.

من: بمعنى الذي في محل رفع مبتدأ.

كمن: خبر المبتدأ.وهي ليست أداة شرط، لأن كمن لا يصلح أن يكون جواباً .

بسخط: في محل نصب حال.

هم درجات: مبتدأ وخبر، والتقدير ذوو درجات محذوف المضاف.

عند الله: ظرف لمعنى درجات كأنه قال: هم متفاضلون عند الله، ويجوز أن يكون صفة لدرجات(٣).

المعنى الإجمالي:

إن من كان على طاعة الله وإن سخط الناس عنه فثوابه الجنة، أما من ساء عمله فاستحق غضب الله تعالى فمأواه النار.

وحاشا لله أن يساوي بين من أطاعه فيما أمره ونهاه، وبين العاصي له في ذلك، فإنهما لا يستويان في المنزلة، مآلهما متباين، وهم مختلفو المنازل عند الله، فلمن كان عمله صالحا الكرامة والثواب الجزيل، ولمن رجع إلى ربه والله ساخط عليه لسوء عمله فله المهانة والعذاب الأليم(٤).

إن الناس متباينون في المنزلة عند الله بحسب اختلافهم في الأعمال الصالحة والطالحة.

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾(٥).

معاني الألفاظ:

الخبيث: الحرام من أموال الناس.

الطيب: يعني الحلال(١). وبه قال الحسن البصري(٢).

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤١٧/١.

(٢) ينظر: التبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ٢٣٠/١. والتبيان للعكبري: ٣٠٧/١.

(٣) ينظر: التبيان للعكبري: ٣٠٧/١.

(٤) ينظر: تفسير الطبري: ١٠٧/٤.

(٥) سورة المائدة: الآية ١٠٠.

وقال السدي: المراد بهما المؤمن والكافر.

وقيل: المطيع والعاصي، وقيل الرديء والجيد.

وقال القرطبي: وهذا على ضرب المثال.

والصحيح: أن اللفظ عام في جميع الأمور، يتصور في المكاسب والأعمال والناس، والمعارف من العلوم وغيرها.

فالخبيث من هذا كله لا يفلح ولا ينجب، ولا تحسن له عاقبة، وإن كثر، والطيب، وإن قل نافع جميل العاقبة.

سبب النزول:

روى الواحدي بإسناده عن جابر ﵁ قال:

قال النبي ﷺ: إن الله عز وجل حرم عليكم عبادة الأوثان، وشرب الخمر، والطعن في الأنساب، إلا أن الخمر لعن شاربها، وعاصرها، وساقيها، وبائعها، وآكل ثمنها، فقام إليه أعرابي فقال: يا رسول الله إني كنت رجلا كانت هذه تجارتي فاقتنيت من بيع الخمر مالا، فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال له النبي ﷺ: إن أنفقته في حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل عند الله جناح بعوضة، إن الله لا يقبل إلا الطيب، فأنزل الله تعالى تصديقاً لقوله ﷺ: **﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾**(٣).

لمن الخطاب في الآية؟

قيل الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، لأن النبي ﷺ لا يعجبه الخبيث، وقيل: المراد به رسول الله ﷺ نفسه، لأنه تعجب من كثرة الكفار والمال الحرام، وقلة المؤمنين والمال الحلال(٤).

الأوجه البلاغية:

---

(١) ينظر: الوجوه والنظائر: ١١١.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: ٦/٣٢٧.

(٣) ينظر: أسباب النزول للواحدي: ١٧٠/١٧١.

(٤) ينظر: تفسير القرطبي: ٦/٣٣٠.

بين الخبيث والطيب طباق(١).

المعنى الإجمالي:

إن الله تعالى يأمر نبيه محمداً ﷺ أن يخبر أمته أن الخبيث لا يساوي الطيب مقدارا ولا إنفاقا، ولا مكانا، ولا ذهابا، فالطيب يأخذ جهة اليمين، والخبيث يأخذ جهة الشمال والخبيث في النار(٢).

وإن الخبيث مهما عم أو كثر فإنه لا يساوي الطيب، لأن الخبيث مردود. بل العبرة بالكسب المقبول أن يكون حقا لا باطلا.

الفوائد:

١. أن الخبيث في جميع الأمور لا يساوي الطيب.
٢. أن كثرة الخبيث لا تجعل له قيمة ولا تعطيه درجة من درجات الطيب، لأنه مردود على صاحبه أصلا.

وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (٣).

معاني الألفاظ:

وليوفيهم: وليجازيهم ما يستحقون من نعيم وعقاب.

وما يتعلق به اللام محذوف، أي وليوفيهم جزاء أعمالهم(٤).

القراءات:

قرئت وليوفيهم بالياء، كما قرئت بالنون(٥).

المعنى الإجمالي:

لكل من المؤمنين والكافرين مراتب ومنازل بحسب أعمالهم، فمراتب المؤمنين في الجنة عالية، ومراتب الكافرين في جهنم سافلة، وليعطينهم الله جزاء أعمالهم وافية

---

(١) ينظر: الصفوة: ٣٤٢/١.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: ٣٢٨/٦.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ١٩.

(٤) ينظر: التبيان للعكبري: ١١٥٧/٢.

(٥) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤٤٤/٤.

كاملة، المؤمنون بحسب الدرجات، والكافرون بحسب الدركات، من غير نقصان بالثواب ولا زيادة في العقاب(١).

الفائدة:

إن من مقاييس التفاضل بين الناس تباينهم في الأعمال، فمن أتى بالصالحات أكرم، ومن أتى بالطالحات أهين.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٢).

معاني الألفاظ:

أم نجعل: الميم صلة تقديره: أنجعل(٣).

المعنى الإجمالي:

إن الله تعالى لا يجعل المؤمنين الذين يعملون الصالحات كالمفسدين في الأرض، ولا يجعل مكانة أصحاب النبي محمد ﷺ كمكانة الكفار كما رأى ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: هو عام في المسلمين المتقين والفجار الكافرين، وهو أحسن(٤).

فإن الله تعالى لا يساوي في ميزانه بين هؤلاء وهؤلاء، وإذا لم يقع هذا الأمر في الدنيا، فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت، وكذلك نرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد من حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا(٥).

الفوائد:

---

(١) ينظر: صفوة التفاسير: ١٨٣/٣.

(٢) سورة ص الآية: ٢٨.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي: ١٩١/١٥.

(٤) ينظر: المصدر نفسه.

(٥) ينظر: تفسير ابن كثير: ٣٤/٤.

1. في هذه الآية رد على المرجئة الذين يقولون: يجوز أن يكون المفسد كالمصلح، أو أرفع درجة منه(١).
2. إنه لا يتساوى في حكمه تعالى المحسن مع المسيء، ولا البر مع الفاجر(٢).
3. فيها إرشاد لذوي العقول السليمة على أنه لا بد من معاد وجزاء أخروي(٣).
4. وفيها رد على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد(٤).

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٥).

معاني المفردات:

أم حسب: استفهام معطوف، معناه الإنكار.

وقيل: فيه إضمار: أي والله ولي المتقين، أفيعلم المشركون ذلك أم حسبوا أنا نسوي بينهم.

وقيل: هي أم المنقطعة.

ومعنى الهمزة: فيها إنكار الحسبان(٦).

اجترحوا السيئات: أي عملوها وكسبوها(٧).

القراءات:

قرأ عامة القراء سواء بالرفع.

وقرأ حمزة الكسائي والأعمش سواء بالنصب، واختاره أبو عبيد. ومعناه: نجعلهم سواء.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤٦٢/٣.

(٢) ينظر: صفوة التفاسير: ٥٢/٣.

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: ٣٤/٤.

(٤) ينظر: تفسير القرطبي: ١٩١/١٥.

(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢١.

(٦) ينظر: تفسير القرطبي: ١٦٥/١٦.

(٧)

وقرأ الأعمش وعيسى بن عمر: ومماتهم بالنصب.

الإعراب:

على قراءة الجمهور (سواء) بالرفع فإنها تعرب خبرا مقدما للمبتدأ المؤخر وتقدير الكلام: محياهم ومماتهم سواء والضمير في (محياهم ومماتهم) يعود على الكفار، أي محياهم محيا سوء ومماتهم كذلك.

ومن قرأ مماتهم بالنصب جعلها على معنى: سواء في محياهم ومماتهم، فلما أسقط حرف الجر صح النصب.

ويجوز أن يكون محياهم ومماتهم بدلا من الهاء والميم في نجعلهم. ويكون المعنى على هذا: أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كمحيا الذين آمنوا ومماتهم.

ويجوز أن يكون الضمير في (محياهم ومماتهم) للكفار والمؤمنين جميعا، قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمنا، ويبعث مؤمنا، والكافر يموت كافرا ويبعث كافراً(١).

فيمن نزلت؟

قال الكلبي: الذين اجترحوا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة.

والذين آمنوا: علي وحمزة وعبيدة وحارث ﷺ حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم.

وقيل: نزلت في قوم من المشركين قالوا: إنهم يعطون في الآخرة خيرا مما يعطاه المؤمن(٢).

المعنى الإجمالي:

أحسب الكفار الذين عملوا السيئات أن نساوي بينهم في الدنيا والآخرة، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار لا في الدار الآخرة ولا في الحياة الدنيا(٣).

الفوائد:

١. عدم مساواة الله بين المؤمنين والكافرين، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي: ١٦/١٦٥-١٦٦.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٦/١٦٥.

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: ٤/١٥٢.

٢. عدم مساواة أهل المعاصي والآثام لآهل التقى والعفاف.

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾(١).

معاني المفردات: الظالم لنفسه: الكافر، وجعله الإمام الحسن البصري عاما لكل فاسق.

وقيل الذي يعمل الصغائر.

ويكون الضمير الذي في (يدخلونها) يعود على المقتصد والسابق، لا على الظالم.

ورأى بعضهم أن الثلاثة يدخلون الجنة، ويفسر على هذا الظالم لنفسه بالذي يعمل الصغائر.

والمقتصد على ما ذكره محمد بن يزيد: هو الذي يعطي الدنيا حقها، فيكون الضمير في (يدخلونها) عائدا على الجميع.

وقيل الظالم: صاحب الكبائر، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته، فيكون الذين يدخلون الجنة هم السابقون بالخيرات لا غير(٢).

ومن الآيات التي دعت المؤمنين إلى استباق الخيرات لينالوا فضل الله جزاء حسن صنيعهم:

قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾(٣). ومعنى هذه الآية: أي فاستبقوا الخيرات من قبل أن تعجزوا عنها، أو تموتوا، أو يذهب وقتها(٤).

ومنها قوله تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾(٥).

ومعنى الوجهة: الملة(٦). وقيل المراد بها القبلة(١).

---

(١) سورة فاطر الآية: ٣٢.

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٣/٣٧٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢/٢٤.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

(٦) ينظر: الوجوه والنظائر: ٦٧.

موليها: مستقبلها(٢). ويراد بذلك: أن كل ذي ملة له قبلة(٣).

والمراد بذلك: أي فبادروا إلى القبول من الله ﷻ، وولوا وجوهكم حيث أمركم أن تولوا(٤).

القراءات:

وقد قرأها ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هو مولاها(٥).

---

(١) ينظر: تفسير المشكل لمكي بن أبي طالب: ٣٤.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/٨٥.

(٣) ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٦٥.

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/٢٢٥-٢٢٦.

(٥) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/٨٥ وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/٢٢٥.

وهكذا قرأها ابن عامر بفتح اللام وبعده ألف(١).

ومنها قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (٢).

معناها: أي في عمل الخيرات أي الطاعات.

وقال أبو إسحاق: يسارعون أبلغ من يسرعون.

وأحسم ما قيل في تفسير قوله تعالى ﴿ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ أنهم يسبقون إلى أوقاتها، ودل أن الصلاة في أول الوقت أفضل، وكل من تقدم في شيء فقد سبق إليه، وكل من تأخر عنه فقد سبقه وفاته(٣).

ومنها قوله تعالى في وصف بعض أهل الكتاب الصالحين: ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٤).

الإعراب:

يؤمنون به: في محل نصب حال، أو هي في محل رفع صفة لأمة في الآية السابقة لها، أو أن يكون مستأنفا وما بعده عطف عليه(٥).

يتجلى مما سبق عرضه من الآيات المتعلقة بالمسارعة إلى فعل الخيرات أو السبق لها أو المبادرة إليها قبل فواتها: إن هذه الخصلة يمكن عدها من أسباب التفاضل بين البشر، فإن الفاضل منهم من يسبق غيره إلى فعل الخير. فبين لهم سنة حسنة أو يحضهم في ذلك على فعل الخير وعدم التقاعس عنه.

---

(١) ينظر: الإقناع في القراءات السبع: ٦٠٥/٢.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٦١.

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ١١٧/٣.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١١٤.

(٥) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤٠١/١-٤٠٢.

المطلب الثاني

التفاضل بين الناس بسبب تباينهم في التقوى

قال تعالى ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ (١).

معاني الألفاظ:

شفا: حرف(٢). أوحد الشيء(٣).

وشفا مقصور يكتب بالألف، والتثنية شفوان، والجمع أشفاء(٤).

والجرف: ما ينجرف بالسيول من الأودية(٥).

والهائر: الساقط ومنه يقال: تهور البناء: إذا سقط أو انهار(٦).

واصل هار: هائر، وهذا من المقلوب، كما قالوا في لاث الشيء: إذا دار فهو لاث. والأصل لائث(٧). ووزنه فالع، فحذفت الياء، كما حذفت في نحو قاض ورام، في حالتي الرفع والجر، وقد يجوز ألا نقدر المحذوف لكثرة الاستعمال، ويجري مجرى الصحيح كقولهم: يوم راح أي ذو روح، وكبش صاف أو صوف(٨).

وزعم أبو حاتم: أن يكون أصله هاورا، ثم يقال: هائر مثل صائم ثم يقلب فيقال: هار.

وزعم الكسائي أنه يكون من ذوات الواو، ومن ذوات الياء، وأنه يقال: تهور وتهير(٩).

القراءات:

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٠٩.

(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ١٩٢.

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/٤٧٠.

(٤) ينظر: المصدر نفسه وإعراب القرآن للنحاس: ٢/٢٣٧.

(٥) ينظر: تفسير غريب القرآن: ١٩٢.

(٦) ينظر: المصدر نفسه.

(٧) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/٤٧٠.

(٨) ينظر: التبيان في غريب القرآن لابن الأنباري: ١/٤٠٦. والتبيان للعكبري: ٢/٦٦١.

(٩) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢/٢٣٧. وقارن التبيان للعكبري: ٢/٦٦١.

١. أسس بنيانه: قرأ نافع وابن عامر بصيغة المبني للمفعول(١). وهذه قراءة زيد بن ثابت ﷺ.

٢. وقرأ أبو جعفر يزيد بن قعقاع، وأبو عمرو، وعاصم، والأعمش، وحمزة، والكسائي بفتح الهمزة ونصب البنيان. وإن الفاعل سمي فيه، وهو اختيار أبي عبيد لكثرة من قرأ بهذه القراءة.

٣. وقرأ نصر بن عاصم ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ ﴾ وتعرب أسس مبتدأ، وهو مضاف، وخفض بنيانه بالإضافة، وخبر المبتدأ ﴿ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ ﴾ والجملة في الصلة وأسس: وأس بمعنى واحد، مثل: عَبٍ وعُبٍ.

٤. وقال أبو حاتم: وقرأ بعض القراء ٱلرَّجِيمِ ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ ﴾ وقال النحاس: أساس واحد، وجمعه أسس. كما يقال: خف وأخفاف(٢).

و (جرف) قريء مسكنا أيضا وعليه ابن عامر وأبو بكر وحمزة(٣).

الإعراب: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ ﴾:

من: بمعنى الذي في محل رفع مبتدأ.

وخبره: خير.

أم من أسس بنيانه: عطف على الأولى(٤).

على تقوى: يجوز أن يكون في موضع الحال من الضمير في (أسس) أي على قصد التقوى. والتقدير: قاصدا بنيانه التقوى، ويجوز أن يكون مفعولا لأسس(٥).

الأوجه البلاغية:

---

(١) ينظر: الإقناع: ٦٥٩/٢.

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢٣٦/٢-٢٣٧.

(٣) ينظر: الإقناع: ٦٥٩/٢، التبيان للعكبري: ٦٦١/٢.

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢٣٦/٢.

(٥) ينظر: التبيان للعكبري: ٦٦١/٢.

في قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ ﴾ استعارة مكينة فقد شبهت التقوى والرضوان بأرض صلبة، يعتمد عليها البنيان، وطوى ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه، وهو التأسيس(١).

المعنى الإجمالي:

إن من بنى بنيانه على التقوى أفضل ممن بنى بنيانه على الكفر(٢).

الفائدة:

إن التقوى تعد أساسا للتفاضل بين الناس.

وقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(٣).

معاني المفردات:

الناس: قيل: المراد بهم عامة البشر، وأما الشعوب والقبائل ففي العرب خاصة(٤).

وقيل: الشعوب بطون العجم، والقبائل بطون العرب(٥).

من ذكر وأنثى: من آدم وحواء(٦).

شعوبا وقبائل: الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد، والشعب يجمع القبائل(٧). والشعوب أكبر من القبائل مثل مضر وربيعة(٨).

لتعارفوا: أي ليعرف بعضكم بعضا(٩).

أكرمكم: أفضلكم.

القراءات:

---

(١) ينظر: صفوة التفاسير: ٥٢٣/١.

(٢) ينظر: معاني القرآن واعرابه للزجاج: ٤٦٩/٢.

(٣) سورة الحجرات: الآية: ١٣.

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢١٥/٤.

(٥) ينظر: تفسير البيضاوي: ٤١٨/٢.

(٦) ينظر: المصدر نفسه.

(٧) ينظر: المصدر نفسه.

(٨) ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٤١٦.

(٩) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣٨/٥ والتبيان للعكبري: ١١٧١/٢ وتفسير البيضاوي: ٨٩٦/٢.

قال تعالى ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ﴾ بكسر همزة إن لأنه ابتداء، ولم يحمله على لتعارفوا(١).

ولو قرئت إن أكرمكم عند الله أتقاكم جاز ذلك، على معنى وجعلناكم شعوبا ليعرف بعضكم بعضا، لأن أكرمكم عند الله أتقاكم(٢).

ويقرأ: لتعرفوا ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ﴾ بفتح الهمزة(٣).

فقريء: لتعارفوا بالإدغام، ولتتعارفوا، ولتعرفوا(٤).

وأصل تعارفوا: تتعارفوا حذفت إحدى التاءين تخفيفا(٥).

الإعراب:

إن وما عملت فيه (مفعول به) للفعل تعارفوا(٦).

المعنى الإجمالي:

إن الله تبارك وتعالى أعلم البشر كافة أنه خلقهم كلهم من آدم وحواء فهم في الأصل سواء، ثم جعلهم شعوبا وقبائل شتى ليحصل بينهم التعارف، لذا لا وجه للتفاخر بالأنساب، بل خير البشر من أتقى ربه وأطاعه.

الفوائد:

إن التقوى سبب من أسباب التفاضل بين الناس، فمن أراد شرفا رفيعا فليحصله بالتقوى(٧).

لذا يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: ترك الناس هذه الآية ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ وقالوا بالنسب(٨).

---

[١] ينظر: معاني القرآن للأخفش: ٨٩٦/٢.

[٢] ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣٨/٥.

[٣] ينظر: التبيان للعكبري: ١١٧١/٢.

[٤] ينظر: تفسير البيضاوي: ٤١٨/٢.

[٥] ينظر: صفوة التفاسير: ٢١٩/٣.

[٦] ينظر: التبيان للعكبري: ١١٧١/٢.

[٧] ينظر: تفسير البيضاوي بتصرف: ٤١٨/٢.

[٨] ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢١٦/٤.

ومما دل على أن التقوى مقياس التفاضل بين البشر قوله تعالى﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾(١).

ومعناها: أن الله سبحانه لا يجعل المسلمين المتقين، كالفجار الكافرين(٢).

وقال تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾(٣).

معاني الألفاظ:

زين: حبب

وقال تعالى (زين) ولم يقل زينت وإن كانت الحياة مؤنثة، فحذفت التاء لأجل الفصل بين الفعل، وبين ما أسند إليه. ولأن تأنيث الحياة غير حقيقي، وذلك يحسن مع الفصل.

والفعل يجوز فيه ترك علامة التأنيث منه، إذا كان التأنيث غير حقيق نحو: حسن الدار(٤).

وأورد التزيين بصيغة الماضي لكونه مفروغا منه مركوزا في طبيعتهم(٥).

فوقهم: يعني الرفع في المنزلة والقرب إلى الله تعالى(٦).

القراءات:

قرأ مجاهد وحميد بن قيس (زين) وهي قراءة شاذة لأنه لم يتقدم للفاعل ذكر(٧).

المعنى الإجمالي:

إن المؤمنين المتقين هم أرفع منزلة في الآخرة من الكافرين الذين استحبوا الحياة الدنيا.

---

(١) سورة ص من الآية ٢٨.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: ١٩١/١٥.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢١٢.

(٤) ينظر: التبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ١٤٩/١ والتبيان للعكبري: ١٧٠/١.

(٥) ينظر: صفوة التفاسير: ١٢١/١.

(٦) ينظر: الوجوه والنظائر: ٢٤٢.

(٧) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١٣١/١.

وكذا حال المؤمنين في الدنيا فهم أهل عزة وكرامة، وأما الكافرون أو غير المتقين فهم في أدنى المنازل في الدنيا لأنهم عبيد شهواتهم ونزواتهم، ولا يرجحون كفة الكرامة على مذلتهم.

فائدة الآية:

إن المتقين هم أعلى مكانة من غير المتقين. لذا تعد التقوى من أسباب التفاضل المهمة بين الناس مؤمنيهم وكافريهم.

وقال تعالى﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ ﴾(١).

معاني الألفاظ:

أمن: قيل أن ألف في قوله تعالى (أمن) ألف استفهام بمعنى التتبيه، منقطعة.

تقدير الكلام: أي بل أم من هو قانت.

وقيل: أن الألف الاستفهام متصلة، وتقدير الكلام: أم من يعصي، أم من هو مطيع مستويان، وقد حذف الخبر لدلالة قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

وقيل: هي همزة الابتداء.

وقيل: أن الهمزة بمنزلة (يا) النداء. وتقديره: يا من هو قانت(٢).

قانت:

قيل في معناه:

١. المطيع الخاضع العابد قاله ابن مسعود ﷺ.
٢. الخاشع في صلاته قاله ابن شهاب الزهري.
٣. إنه قائم في صلاته، قاله يحيى بن سلام.
٤. الداعي لربه: وقول ابن مسعود يجمع ذلك(٣).

وقال ابن قتيبة: قانت أي مصل، واصل القنوت الطاعة(١).

---

(١) سورة الزمر: الآية: ٩.

(٢) ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ٣٢٢/١ والتبيان للعكبري: ١١٠٩/٢ وتفسير القرطبي: ٢٣٨/١٥-٢٣٩.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي: ٢٣٩/١٥.

واختلفوا في تعيين القانت على النحو الآتي:

١. أنه رسول الله ﷺ قاله يحيى بن سلام.
٢. القانت أبو بكر وعمر رضي الله عنهما قاله ابن عباس رضي الله عنهما.
٣. هو عثمان بن عفان ﵁ قاله ابن عمر رضي الله عنهما.
٤. إنه عمار بن ياسر ﵁ قاله مقاتل.
٥. القانت صهيب وأبو ذر، وابن مسعود(٢).

آناء الليل: قال ابن عباس: جوف الليل

وقال الحسن البصري: ساعاته، أوله وأوسطه وآخره.

وقيل: ما بين المغرب والعشاء.

ويرجع قول الحسن لأنه عام، وهو الذي مال إليه أكثر المفسرين(٣).

يحذر الآخرة: قال سعيد بن جبير معناه: يخاف عذاب الآخرة. ويرجو رحمة ربه: أي يرغب بنعيم الجنة(٤).

ومعنى ذلك: انه في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من الخوف والرجاء في آن واحد. وينبغي أن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب. أما في ساعة الاحتضار فيجب أن يكون رجاء العبد بعفو ربه هو الغالب(٥).

القراءات:

قرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائي: أمن بالتشديد.

وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة (أمن هو) بالتخفيف(٦).

الإعراب:

---

(١) ينظر: تفسير غريب القرآن: ٣٨٢.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: ٤٨/٤ وتفسير القرطبي: ٢٣٩/١٥.

(٣) ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٣٨٢. وإعراب القرآن للنحاس: ٥/٤-٦، وتفسير ابن كثير: ٤٨/٤ وتفسير القرطبي: ٢٣٩/١٥.

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٥/٤-٦؛ وتفسير القرطبي: ٢٣٩/١٥-٢٤٠.

(٥) ينظر: تفسير ابن كثير: ٤٨/٤.

(٦) ينظر: الإقناع: ٧٥٠/٢، وتفسير القرطبي: ٢٣٨/١٥.

ساجدا وقائما: حالان أما من الضمير في (قانت)، أو من الضمير في يحذر(١).

المعنى الإجمالي:

لا يستوي من كان طائعا لربه، خائفا منه، راجيا نعيمه مع من كان سادرا في غيه وضلالاته وعصيانه(٢).

فائدة الآية:

إن المتقي لله أفضل في تقدير الله ممن عصاه.

قال عبدالله بن مسعود ﷺ: مدح الله العلماء في هذه الآية ثم قال: (أيها الناس أفهموا هذه الآية ولترغبنكم في العلم، فإن الله يقول: يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذي ليس بعالم درجات.

فائدة الآية:

إن الرفعة عند الله تعالى بالإيمان أو لا والعلم ثانيا، لا بالسبق إلى صدور المجالس(٣).

المبحث الثالث

تفاضل الناس بسبب تباينهم بالعلم والكفاءة

وأشتمل هذا المبحث على مطلبين:

المطلب الأول: تفاضل الناس بسبب تباينهم بالعلم

المطلب الثاني: تفاضل الناس بسبب تباينهم بالكفاءة

المطلب الأول

تفاضل الناس بسبب تباينهم بالعلم

قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١).

---

(١) ينظر: التبيان للعكبري: ١١٠٩/٢.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج بتصرف: ٣٤٧/٤.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي: ٢٩٩/١٧-٣٠٠.

معاني الألفاظ:

تفسحوا: توسعوا.

انشزوا: قوموا أو انهضوا، ومنه قولهم: نشزت المرأة على زوجها(٢).

سبب نزول الآية:

قال مقاتل: (كان النبي ﷺ في الصفة، وفي المكان ضيق، وذلك يوم الجمعة، وكان رسول الله ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء أناس من أهل بدر، وقد سبقوا إلى المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم، وشق ذلك على رسول الله ﷺ فقال لمن حوله من أهل بدر: قم يا فلان وأنت يا فلان، فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، فعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم. فقال المنافقون للمسلمين: ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس. فوالله ما عدل على هؤلاء، قوم أخذوا مجالسهم، وأحبوا القرب من نبيهم، أقامهم، وأجلس من أبطأ عنهم، مقامهم فنزل الله تعالى هذه الآية)(٣).

القراءات:

قرأ الحسن وقتادة (تفاسحوا).

والقراءة الأولى أفصح كما قاله أهل اللغة ومنهم الخليل بن أحمد الفراهيدي. وقرأ الحسن وعاصم (في المجالس)، وقرأ الجمهور في المجلس وأختلف في المراد من المجلس:

فقيل: إنه مجلس النبي ﷺ خاصة. فكان الناس يتنافسون في مجلسه، لا يكاد يوسع بعضهم لبعض فأنزل الله هذه الآية إرشادا لهم.

وبه قال مجاهد.

---

(١) سورة المجادلة، الآية ١١.

(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: وإعراب القرآن للنحاس: ٣٧٨/٥-٣٧٩ وتفسير المشكل لمكي: ٢٦٣.

(٣) ينظر: أسباب النزول للواحدي: ٣٤٧.

وقيل: إنه مجلس الذكر، وبه قال قتادة.

وقيل: إنه في القتال خاصة وبه قال الحسن ويزيد بن أبي حبيب. ولا يعلم قول رابع في المراد من المجلس.

وقد رجح النحاس أن ظاهر الآية يفيد العموم، فعليه يجب أن يحمل المراد من المجلس.

﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ قرأ برفع الشين أبو جعفر ونافع وشيبة وابن عامر وعاصم.

وقرأ بكسر الشين ابن كثير، وأبو عمروا وأهل الكوفة وأختاره أبو عبيدة وهما لغتان بمعنى واحد(١).

المعنى الإجمالي:

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يوسعوا في المجالس لأهل العلم والفضل، وأن يقوم الأدنى للأعلى من حيث العلم والتقوى وغير ذلك من المعاني الخيرية، لأن الله تعالى يحب المؤمنين العلماء ويجلهم أو يفضلهم على من لم يلحقوا به في قوة الإيمان والعلم، والخصال الحميدة الأخرى.

وقال تعالى ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(٢).

معناها كما رأى الزجاج: أي لا يستوي العالم والجاهل.

وقال غيره: الذين يعلمون: هم الذين يعملون بما علموا. ومن لم ينتفع بعلمه فهو بمنزلة غير العالم(٣).

فائدة الآية:

إن الباري ﷻ لم يسو بين عباده العلماء والجهلاء من حيث التكريم أو التفاضل وهذا هو ديدن ذوي العقول، إنهم لا يساوون بين العالم والجاهل بحال، وإلا انقلبت

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٣٧٨/٥ والإقناع في القراءات السبع: ٧٨٢/٢-٧٨٣ وتفسير القرطبي: ٢٩٩/١٧.

(٢) سورة الزمر: من الآية ٩.

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣٤٧/٤، وإعراب القرآن للنحاس: ٧/٤.

الموازين الصحيحة وساد ذو الجهل على ذي العلم، فعم الخراب والدمار وضاعت المثل والقيم النبيلة.

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ (١).

معاني المفردات:

بسطة: أي سعة(٢).

أنى: بمعنى أين، أو بمعنى كيف(٣).

القراءات:

قرأ بسطة بالسين قنبل، وحفص، وهشام، وأبو عمرو، وحمزة، وحكي عنهم الخلاف في قراءة ذلك.

وقرأ الباقون (بصطة) بالصاد، وحكي عنهم الخلاف في قراءتها بالصاد إلا الكسائي والبزي فلا خلاف عنهما في قراءتها بالصاد.

وعن الأخفش أنها تقرأ في هذه الآية بالسين، وتقرأ في سورة الأعراف بالصاد. وبعكس هذا ذكر عن قنبل(٤).

الإعراب:

أنى: في محل نصب حال في الملك، والعامل فيها يكون.

يكون: يجوز أن تكون ناقصة، فيكون خبرها: له.

وعلينا: حال من الملك والعامل في الحال يكون أو الخبر ويجوز أن يكون الخبر علينا، وله: حال.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.

(٢) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: ٩٢ وتفسير المشكل لمكي: ٤٢.

(٣) ينظر: البيان للعكبري: ١/١٩٧.

(٤) ينظر: الإقناع: ٢/٦٠٩-٦١٠.

ويحتمل أن (يكون) تامة، فيكون (له) متعلقا بـ (يكون)، وعلينا: حال، والعامل فيه يكون.

ونحن أحق: الواو واو الحال. والجملة في محل نصب حال، والباء في قوله تعالى (بالملك) ومن في قوله تعالى (منه) متعلقان بـ (أحق).

من المال: نعت لـ (سعة).

في العلم: يجوز أن يعرب صفة للبسطة، أو أن يكون متعلقا بها(١).

المعنى الإجمالي:

لما استفهم بنو إسرائيل من نبيهم كيف يختار الله علينا طالوت ملكا، وهو لم يؤت ما تتملكه الملوك من المال وأسباب القوة، فأعلمهم الله تعالى أن العلم هو الذي يجب أن يقع الاختيار به، وليس ان الله لا يملك إلا ذا مال عريض، وأعلمهم أن الزيادة في الجسم مما يهيب به العدو(٢).

فائدة الآية:

إن العلم سبب عظيم من أسباب رفعة الإنسان، وتمكنه في الأرض، وأنه من أسباب التفاضل بين الناس.

وقال تعالى ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾(٣).

معاني الألفاظ:

نرفع درجات من نشاء: أي نرفع درجات بالعلم. وبه قال الإمام مالك(٤).

القراءات:

قرئت درجات بالتنوين وبها قرأ أهل الكوفة، وعلى هذه القراءة يتعدى الفعل نرفع إلى مفعولين أحدهما بحرف.

وتقدير الكلام: نرفع من نشاء إلى درجات.

---

(١) ينظر: التبيان للعكبري: ١/١٩٧-١٩٨.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/٣٢٨-٣٢٩.

(٣) سورة: ٧٦.

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢/٣٣٩.

وقرئت درجات بلا تنوين بإضافتها إلى من وهذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة، وأكثر كلام العرب على هذه القراءة. إذ يقولون: أللهم ارفع درجته، ولا يكادون يقولون: اللهم ارفعه درجة(١).

ويجوز الزجاج: رفع درجات، وعدها قراءة حسنة لكنه استدرك أنه لم يعلم لها قراءة، فلا تصح قراءتها ما لم تثبت فيها رواية(٢).

وقرئت: ذي علم: ذي عالم. وهي قراءة شاذة، وفيها ثلاثة أوجه:

١. إنه مصدر.
٢. عُدُّ ذي زائدة.
٣. إنه من إضافة الاسم إلى المسمى، وهو محذوف تقديره: ذي مسمى عالم(٣).

المعنى الإجمالي:

إن الله تبارك وتعالى يرفع منازل بعض عباده، أو رتبهم مثل يوسف عليه السلام درجات بالعمل وجعل الله تعالى فوق كل عالم من البشر من هو أعلم منه حتى ينتهي ذلك إلى الباري عز وجل. أو أن فوق كل ذي علم عالم بكل شيء، وهو الحق سبحانه المحيط بكل العلوم إحاطة تامة، قال الحسن البصري: (ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله)(٤).

الفائدة:

إن الإنسان إذا حاز العلم أكثر من غيره ترفع رتبته أو منزلته.

المطلب الثاني

تفاضل الناس بسبب تباينهم بالكفاءة

قال تعالى ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ (٥).

---

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١٢٢/٣ وإعراب القرآن للنحاس: ٣٣٩/٢، وتفسير الطبري: ١٨/١٣.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١٢٢/٣.

(٣) ينظر: التبيان للعكبري: ٤٧٠/٢.

(٤) ينظر: تفسير الطبري: ١٨/١٣ وإعراب القرآن للنحاس: ٣٣٩/٢.

(٥) سورة يوسف الآية: ٥٥.

معاني المفردات:

اجعلني على خزائن الأرض: ولِّني أمرها.

حفيظ: أي إنه يقوم بحفظها ممن لا يستحقها.

عليم: أي إنه عارف بكيفية التصرف فيها.

المعنى الإجمالي:

لما علم يوسف ﵇ أن ملك مصر سيوليه لا محالة، اختار عندئذ أن يجعله الملك على خزائن الأرض، أو أن يجعله وزيرا للمالية، لما وجد في نفسه من قدرة على إدارة ذلك العمل بإتقان، أنه ممارس له مع علمه بذلك الأمر، وأمانته عليه، وقد قصد من وراء ذلك تحقيق العدل بين الناس، وإشاعة الإحسان، وليس المقصود طلب الإمارة التي يكره طلبها للمؤمن ابتداء(١).

الفائدة من الآية:

تمكين ذي العلم الكفوء أن يمارس العمل الذي يرى أنه قادر على الإتيان به على أحسن وجه وفي هذه الآية دلالة على مراعاة الإسلام كفاءة الإنسان عندما يناط به أي تكليف.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾(٢).

معاني الألفاظ:

استأجرت: اتخذته أجيراً

القوي الأمين: أي من قوي على عمله، وأدى فيه الأمانة(٣).

المعنى العام:

بين تعالى على لسان إحدى بنتي شعيب ﵇ وهي تحض أباها أن يتخذ أجيرا لرعي أغنامهم وسقياها، أن أفضل من تستأجره من كان قادرا على عمله، وأمينا في أداء ذلك الواجب الذي استعمل فيه(٤).

الفائدة:

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢/٣٣٣. وتفسير البيضاوي: ١/٤٨٨.

(٢) سورة القصص: الآية: ٢٦.

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٣/٢٣٦.

(٤) ينظر: تفسير البغوي: ٣/٤٤٢.

١. ينبغي اختيار أكفأ الناس في الوظائف.

٢. إن الكفاءة في أداء العمل المتمثلة بالقدرة على أدائه على أحسن ما يرام مع مراعاة الأمانة في حمايته، تعد سببا من أسباب التفاضل بين الناس في توليهم للمناصب أو الوظائف المناطة بهم.

المبحث الرابع

التفاضل بين الناس بسبب الجهاد والسبق إلى الإسلام

واشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: التفاضل بين الناس بسبب الجهاد

المطلب الثاني: التفاضل بين الناس بسبب السبق إلى الإسلام

المطلب الأول

التفاضل بين الناس بسبب الجهاد

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١).

معاني الألفاظ:

غير أولي الضرر: الزَّمانة، والضرير هو بين الضرر(٢).

درجة: علوا، أي إنه يعليهم ويرفعهم بالثناء والمدح والتقريظ في الجنة(٣).

الحسنى: الجنة(٤).

سبب نزول الآية:

روى أبو بكر بن عباس، وزهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب ﷺ قال: كنت عند رسول الله ﷺ فقال: ادع لي زيداً وقل له يأتي بالكتف والدواة، فقال

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٥.

(٢) ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ١٣٤.

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤٨٣/١.

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٩٣/٢.

له اكتب: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله)، فقال ابن أم مكتوم: وأنا ضرير، فما برحنا حتى أنزل الله ﷻ ﴿ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ (١).

وذكر أن قوله تعالى ﴿ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ نزلت بعد أن ذكر الله فضل المجاهد على القاعد ولم تنزل معها(٢).

القراءات:

قرئت (غير) بالنصب، وبها قرأ زيد بن ثابت ﷺ وأهل الحرمين ونافع وابن عامر والكسائي.

وقرأها أهل الكوفة وأبو عمرو بالرفع(٣).

ومع أن القراءة بالرفع والنصب كثيرة، إلا أن القراءة بالجر، لها وجه جيد، فتجعل من صفة المؤمنين.

وأهل الأمصار لم يقرأوا به، لأن القراءة سنة متبعة(٤).

الإعراب:

إذا جعلت (غير) مرفوعة، فإنها تكون صفة للقاعدين، لأنهم غير معينين، فجاز أن يوصفوا بغير، وإن كان أصلها أن تكون صفة للنكرة.

والمعنى على هذا: لا يستوي القاعدون الأصحاء، الذين هم غير أولي الضرر، والمجاهدون، وإن كانوا مؤمنين كلهم.

أو إنها بدل من القاعدين

ويجوز أن تكون غير مرفوعة على وجه الاستثناء.

والمعنى على هذا: لا يستوي القاعدون والمجاهدون، إلا أولو الضرر، فإنهم يساوون المجاهدين، لأن الذين أقعدهم عن الجهاد الضرر.

والضرر أن يكون ضريرا بين الضرر، أو أعمى، أو زمنا، أو مريضا.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤٨٣/١.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢٨٣/١ ومعاني القرآن للأخفش: ٤٥٣/١.

(٣) ينظر: الإقناع في القراءات السبع: ٦٣١/٢ وإعراب القرآن للنحاس: ٤٨٣/١.

(٤) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢٨٤/١، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٩٣/٢، والبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ٢٦٤/٢.

ومن جعل (غير) بالنصب فعلى معنى الاستثناء من القاعدين، أو من المؤمنين.

والمعنى على هذا: لا يستوي القاعدون إلا أولي الضرر.

وقد ذكر أن (غير) نزلت بعد ذكر فضل المجاهد على القاعد، عنى بها قوما لم يقدروا على الخروج.

إلا أن اقتران غير بالقاعدين يكاد يوجب الرفع، لأن الاستثناء ينبغي أن يكون بعد التمام.

فيقال: لا يستوي المحسنون والمسيئون إلا فلانا وفلانا.

وقد تعرب (غير) في حالة النصب على أنها حال من قوله تعالى (القاعدون). أي لا يستوي القاعدون في حال صحتهم والمجاهدون كما تقول: جاءني زيد غير مريض، أي جاءني زيد صحيحا. كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾ (١). ويحمل من قرأ غير بالجر، على أنها بدل من المؤمنين لأنه نكرة والأول معرفة، أو وصف لهم أي المؤمنين والمجاهدون: معطوف على قوله تعالى (القاعدون).

والمعنى: لا يستوي القاعدون من المؤمنين الأصحاء، والمجاهدون(٢).

بأموالهم وأنفسهم: يتعلق بالمجاهدين.

درجة: قيل هو مصدر في معنى تفضيلا.

وقيل: حال أي ذوي درجة.

وقيل: هو على تقدير حذف الجار، أي بدرجة.

وقيل: هو واقع موقع الظرف، أي درجة ومنزلة(٣).

---

(١) سورة المائدة: الآية ١.

ينظر فيما سبق ذكره بتصرف: معاني القرآن للفراء: ١/٢٨٣-٢٨٤ ومعاني القرآن للأخفش: ١/٤٥٣، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/٩٢. وإعراب القرآن للنحاس: ١/٤٨٣ والبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ٢/٢٦٥، والتبيان للعكبري: ١/٣٨٣.

(٢) ينظر: معاني القرآن للأخفش: ١/٤٥٣ ومعاني القرآن للزجاج: ٢/٩٣ وإعراب القرآن للنحاس: ١/٤٨٣، والتبيان للعكبري: ١/٣٨٣.

(٣) ينظر: التبيان للعكبري: ١/٣٨٣.

وكلا: منصوب بـ (وعد) وكذلك الحسنى: منصوب به، لأن وعد يتعدى إلى مفعولين، كما قال تعالى ﴿ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾(١). ونحوه قولك: وعدت زيدا خيرا(٢).

أجرا: نصب بفضل، وقد يكون منصوبا على المصدر(٣).

الأوجه البلاغية:

فيها طباق بين قوله تعالى (القاعدون) و (المجاهدون) فيها إطناب في قوله تعالى ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ (٤).

المعنى الإجمالي:

إن المجاهدين والقاعدين وأولي الضرر كلهم مؤمنون، وإن كان بعضهم أفضل من بعض(٥).

فالمؤمنون المجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أفضل من المؤمنين الأصحاء القاعدين عن الجهاد. ولا يعذر من قصر عن الجهاد إلا من كان من ذوي الضرر.

ولما كان هؤلاء جميعا يشتركون في الإيمان، فقد وعدهم الله الجنة، لكن المجاهد أعلى درجة ممن لم يجاهد.

الفوائد:

١. أوضحت الآية بجلاء أن من أسباب التفاضل بين المؤمنين قيام بعضهم بالجهاد دون بعضهم الآخر مع قدرتهم على إتيانه.

٢. إن القاعدين عن الجهاد من ذوي الأعذار، لا عتاب عليهم من الله والمؤمنين.

المطلب الثاني

التفاضل بسبب السبق إلى الإسلام

---

(١) سورة الحج: الآية ٧٢.

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤٨٤/١.

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤٨٤/١، والتبيان في غريب إعراب القرآن: ٢٦٥/٢.

(٤) ينظر: صفوة التفاسير: ٢٧٣/١.

(٥) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٤٨٤/١.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (1).

معاني الألفاظ:

السابقون: اختلفت آراء المفسرين في المراد منهم: فقال مجاهد المراد بهم الأنبياء. وفي هذا بعد لأن الله قد قيدهم بمن هاجر ونصر رسول الله محمدا ﷺ. وإن كنا موقنين أن فضل الأنبياء أعلى وأجل من فضل سائر عباد الله سبحانه.

وقال السدي: هم أهل عليين. وفي هذا الرأي تعميم. والآية سيقت لبيان فضيلة بعض المؤمنين على وجه مخصوص. ألا وهو بيان فضل من سبق إلى الهجرة والنصرة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالسابقين يوشع بن نون الذي سبق إلى موسى عليه السلام ومؤمن آل يس الذي سبق إلى عيسى عليه السلام، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي سبق إلى محمد رسول الله ﷺ.

وقال ابن سيرين: هم الذين صلوا إلى القبلتين.

وفي قول محمد بن سيرين هذا بيان لوجه التفضيل وهو أسبق إلى الإسلام.

وقيل: السابقون هم أول الناس رواحا إلى المسجد، وأولهم خروجا في سبيل الله.

وقيل المراد بهم: أول هذه الأمة والذين أتبعوا: المتأخرون من هذه الأمة، فيكون كلا الفريقين السابقين والتابعين من أمة محمد ﷺ.

ولما ثبت بنص القرآن الكريم أن أمة محمد ﷺ خير الأمم، فيبعد أن يكون السابقون أو المقربون في سائر الأمم أكثر مما في أمته عليه الصلاة والسلام، إلا إذا قوبل مجموع الأمم بهذه الأمة. والظاهر أن المقربين من هذه الأمة أكثر من المقربين من سائر الأمم.

ورأى ابن كثير أن هذه الأقوال كلها صحيحة، فأن الوصف المشترك في هذه الأقوال هو مبادرة السابقين إلى فعل الخيرات. وهذا ما رآه جماهير المفسرين(1).

---

(1) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

وأن من ينظر بتدبر في هذه الآية الكريمة يجد أن ظاهرها قد أفاد: إن الله تبارك وتعالى قد أعطى لمن سبق إلى الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة، وللذين نصروا سيدنا محمدا ﷺ من أهل المدينة وغيرها قبل نصرة غيرهم للإسلام، فضلا عظيما، أو درجة عالية.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾: من أحسن من بعدهم إلى يوم القيامة(٢).

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾: إن الله رضي أفعالهم، وأنهم رضوا ما جزاهم الله به(٣).

القراءات:

الأنصار: تقرأ بكسرها، والمراد: من المهاجرين ومن الأنصار.

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه والحسن البصري برفعها عطفا على قوله (والسابقون) أو يكون مبتدأ، والخبر (رضي الله عنهم).

ورجح الأخفش القراءة بالجر لأن السابقين هم من المهاجرين والأنصار(٤).

تحتها: قرأها ابن كثير بزيادة من قبل تحتها(٥).

الإعراب:

الأنصار على قراءة الرفع: عطف على قوله تعالى (والسابقون) كأنه قال: والسابقون والأنصار(٦). أو يكون مبتدأ، والخبر (رضي الله عنهم).

والسابقون: يجوز أن يكون معطوفاً على ما قبله.

ويجوز أن يكون السابقون مبتدأ، والخبر له ثلاثة أوجه:

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ٤/٢٨٥-٢٨٦ بتصرف.

(٢) ينظر: معاني القرآن للأخفش: ١/٤٥٠ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/٤٦٦.

(٣) ينظر: معاني القرآن، وإعرابه للزجاج: ٢/٤٦٦.

(٤) ينظر: معاني القرآن للأخفش: ١/٤٥٠ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/٤٦٦ وإعراب القرآن للنحاس: ٢/٢٣٢-٢٣٣ والتبيان للعكبري: ٢/٦٥٦-٦٥٧.

(٥) ينظر: الإقناع: ٢/٦٥٨.

(٦) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/٤٦٦ وإعراب القرآن للنحاس: ٢/٢٣٢-٢٣٣ والتبيان للعكبري: ٢/٦٥٦-٦٥٧.

الوجه الأول: الأولون.

والمعنى: والسابقون إلى الهجرة، والأولون من أهل الملة، أو السابقون إلى الجنة، الأولون إلى الهجرة.

الوجه الثاني: الخبر ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾.

والمعنى فيه: الإعلام بأن السابقين من هذه الأمة هم من المهاجرين والأنصار.

الوجه الثالث: أن الخبر (رضي الله عنهم)(١).

أبدا: ظرف زمان منصوب.

ذلك الفوز العظيم: مبتدأ أو خبر(٢).

المعنى الإجمالي:

إن الذين سبقوا إلى الإيمان والهجرة والنصرة وفعل الخيرات، من الصحابة والتابعين الذين سلكوا طريقهم إلى يوم القيامة. رضي الله عن أفعالهم، وإنهم رضوا على ما جزاهم الله به، وقد أعد الله لهم الجنة خالدين فيها أبدا.

وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون، ويتنافس فيها المتنافسون. وإنه لا فوز أعظم منه(٣).

الفائدة:

إن السبق إلى الفضيلة ومن ذلك الدخول في دين الإسلام والهجرة من أجله، والنصرة له، من بين أهم مقاييس التفاضل بين البشر.

وهذا المبدأ معمول به عند كثير من الأحزاب والجمعيات على اختلاف اتجاهاتها. ولا شك إنه مأخوذ من مبدأ القرآن الكريم في تكريم السابقين الرواد إلى دين الإسلام، لأنهم الأساس الذين بني عليه بناء الإسلام. وقد صاروا سبباً في هداية غيرهم.

وقال تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(٤).

---

(١) ينظر: التبيان للعكبري: ٦٥٦/٢-٦٥٧.

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢٣٢/٢-٢٣٣.

(٣) ينظر: صفوة التفاسير بتصرف: ٥٢٠/١.

(٤) سورة الحديد، الآية:١٠.

معاني الألفاظ:

من أنفق: في الكلام حذف، تقديره: ومن لم ينفق، ودل على المحذوف قوله تعالى ﴿مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ ﴾(١).

الحسنى: الجنة(٢).

القراءات:

قريء: وكل: أي وكلهم، العائد محذوف، أي وعده الله(٣).

فمن قرأ (كلا) بالنصب جعله المفعول الأول لـ (وعد).

والحسنى: مفعول به ثان لـ (وعد).

ومن قرأ كل بالرفع ففيه وجهان:

الوجه الأول: أن يكون مبتدأ مرفوعا.

ووعد خبره، وقدر في وعد هاء.

وتقديره: وعد الله، والنصب في هذا النحو أقوى وأقيس.

والوجه الثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف.

وتقديره: أولئك كل وعد الله.

ووعد: صفة لـ (كل).

ولهذا لم يجز أن يعمل في (كل)، لأن الصفة لا تعمل في الموصوف، وذهب قوم إلى أنه لا يجوز أن يكون (وعد) صفة لـ (كل) لأنه معرفة، لأن تقديره: كلهم وعد الله(٤).

سبب نزول الآية:

روي عن الكلبي أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ ودل على هذا ما رواه الواحدي بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بينما النبي ﷺ جالس، وعنده أبو بكر الصديق، وعليه عباءة قد خلها على صدره بخلال، إذ نزل عليه جبريل

---

(١) ينظر: التبيان للعكبري: ١٢٠٧/٢.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٩٣/٢ وتفسير الفخر الرازي: ٢٢٠/٢٩.

(٣) ينظر: التبيان للعكبري: ٣٨٣/١ بخصوص تفسير الآية ٩٥ من سورة النساء.

(٤) ينظر: البيان في غريب القرآن: ٤٢٠.

عليه السلام فأقرأه من الله السلام. وقال: يا محمد مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها على صدره بخلال فقال يا جبريل: أنفق ماله قبل الفتح عليَّ. قال فأقرئه من الله سبحانه وتعالى السلام، وقل له يقول لك ربك راضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر، هذا جبريل يقرئك من الله سبحانه السلام ويقول لك ربك أراضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط، فبكى أبو بكر، وقال: على ربي أغضب أنا عن ربي راضٍ أنا عن ربي راضٍ(١).

المعنى الإجمالي:

تقدير الآية: لا يستوي منكم من أنفق من قبل فتح مكة، ومن أنفق من بعد الفتح، إلا أنه حذف لوضوح الحال.

ودلت الآية على أن من صدر عنه الإنفاق في سبيل الله والقتال مع أعداء الله قبل الفتح يكون أعظم حالا ممن صدر عنه، هذا الأمران بعد الفتح. وإن صاحب الإنفاق هو أبو بكر، وصاحب القتال هو علي بن أبي طالب.

وأنه تعالى قدم صاحب الإنفاق في الذكر على صاحب القتال، وفيه إيحاء إلى تقديم أبي بكر رضي الله عنه.

وفي الآية دلالة على فضل من سبق إلى الإسلام، وأنفق وجاهد مع الرسول ﷺ قبل الفتح، إذ كانت الحاجة إلى النصرة قبل الفتح أشد لقلة عدد المسلمين، وكثرة عدد الكافرين، بخلاف ما بعد الفتح، فإن الإسلام صار قويا، والكفر ضعيفا(٢).

الفائدة:

تقديم من أنفق قبل فتح مكة أو قاتل قبله على من أنفق أو قاتل بعد الفتح، مع وعد الله الطرفين معا السابقين والمتأخرين في الإنفاق والجهاد، بالجنة.

وفي هذه الآية دلالة قاطعة على مراعاة السبق إلى الإسلام ونصرته وجعل ذلك سببا من أسباب التفاضل بين المؤمنين.

---

(١) ينظر: أسباب النزول للواحدي: ٣٤٢-٣٤٣، تفسير الفخر الرازي: ٢٩/٢٢٠.

(٢) ينظر: تفسير الفخر الرازي: ٢٩/٢٢٠.

الخاتمة

يمكننا أن نخلص إلى النتائج الآتية:

١. إن الدعامة الأساسية التي أرساها القرآن للتفاضل بين البشر هي الإيمان بالله تعالى ورسالاته السماوية، لأن الكافر إن حاز قصب السبق فإنه سيطغى ويظلم ويتبع هواه. وقد يسعى لتدمير الحضارة البشرية كلها كما نسمع من الذين امتلكوا الأسلحة التدميرية الشاملة أنهم يهددون بنسف العالم إن لم ينفذ خصمهم رغباتهم، وأن أمة محمد ﷺ صارت خير الأمم لتوافر شروط الخيرية الثلاثة فيها، وهي الإيمان بالله والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وإن هذه الخيرية مستمرة لأجيال الأمة ما داموا محققين لهذه الشروط التي رسمها القرآن الكريم لخير الأمم مطلقا، وإن تفضيل بني إسرائيل على العالمين كان منحصرا في زمن موسى ﷺ لأنهم مثلوا الإيمان مقابل الكفر. فلما تخلوا عن أسباب تفضيلهم نزع منهم ذلك الفضل.

٢. منح الإسلام العمل الصالح على اختلاف أصنافه وزنا كبيرا في تفضيل بعض الناس على بعض، وعدالة الله تأبى أن يساوي بين المستقيم في سلوكه والمعوج.

٣. جعل القرآن للعلم منزلة عظيمة في التفاضل بين البشر، فالعالم سيد على من جهل، ولا تصلح مساواة الجاهل للعالم إلا إذا انقلبت الموازين، وضاعت المثل والقيم النبيلة.

٤. أشار القرآن الكريم إلى ضرورة إسناد الوظائف الدنيوية إلى ذي المقدرة على إتيانها، مع اتصافه بالأمانة والإخلاص.

٥. إن المؤمنين يتفاضلون فيما بينهم بسبب زيادة التقوى ونقصانها، والتي تعني الخوف العظيم من الباري خشية التقصير في حقه أو حق البشر، مع الالتزام بالأوامر والنواهي الشرعية.

٦. إن الإسلام أرسى دعامة تكريم السابقين إلى نصرة الحق، ونشره، وتحمل أعباء الدعوة إليه. لأن هؤلاء قد صاروا سببا في لحوق غيرهم بهذا الميدان الشريف من

أجل إظهار الحق، ورفع الظلم عن المظلومين وتوجيه الناس إلى طريق الخير والعلم والمبادئ الصحيحة لينالوا عز الدنيا، ونعيم الآخرة.

٧. فضل القرآن الكريم من يفدون الحق بأنفسهم وأموالهم وألسنتهم على من قعد عن نصرة الحق، فلم ينصره حتى تبين له انتصار ذوي الحق على أهل الباطل. فمن جاهد بنفسه وبذل ماله، وأطلق لسانه في نصرة القضايا العادلة فقد نال الشرف الرفيع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر

۞ القرآن الكريم.

١.أسباب النزول للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، ت ٤٦٨هـ، تحقيق الدكتور السيد الجميلي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

٢.إعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، ت ٣٣٨ هـ، تحقيق د. زهير غازي أحمد زاهد، طبعة عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط٢، سنة ١٤٠٥ هـ– ١٩٨٥م.

٣.الإقناع في القراءات السبع، تأليف أبي جعفر أحمد بن علي الأنصاري أبن الباذش، ت ٥٤٠ هـ، حققه د. عبد المجيد قطامش، ط١، سنة ١٤٠٣هـ، في دار الفكر بدمشق.

٤.التبيان في إعراب القرآن، تأليف أبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، ت٦١٦هـ، تحقيق علي محمد البجاوي، طبعة دار الجيل، بيروت، ط٢، سنة١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.

٥.البيان في غريب إعراب القرآن، تأليف أبي البركات بن الأنباري، ت٥٧٧هـ، تحقيق د. طه عبد الحميد طه، ومراجعة مصطفى السقا، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة١٤٠٠هـ–١٩٨٠م.

٦.تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود، العزاء البغوي الشافعي، ت٥١٦هـ، تحقيق خالد عبدالرحمن العك ومروان سوار، ط، دار المعرفة، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م.

٧.تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تأليف القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ت٧٩١هـ، ط دار الكتب العلمية، بيروت، سنة١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

٨. تفسير الفجر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الرازي فخر الدين أبن العلامة ضياء الدين عمر المشهور بخطيب الري، ط٣، دار الفكر، بيروت، سنة١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٩. تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، ت٧٧٤هـ، ط٢، دار الجيل، بيروت، سنة١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١٠. تفسير المشكل من غريب القرآن، للإمام مكي بن أبي طالب القيسي، ٤٣٧هـ، تحقيق د. علي حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض، سنة١٤٠٦هـت-١٩٨٥م.

١١. تفسير غريب القرآن لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ت٢٧٦هـ، تحقيق السيد أحمد صقر، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، سنة١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

١٢. جامع البيان في تفسير القرآن، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط٣، دار المعرفة، بيروت، سنة١٣٩٨هـ-١٩٨٧م.

١٣. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ت٦٧١هـ، ط٢، صححه أحمد عبدالعليم البردوني، سنة١٣٧٢هـ-١٩٥٢م.

١٤. سنن أبي داود السجستاني، ت٢٧٥هـ، تحقيق محي الدين عبدالحميد، ط دار الفكر، بدون تاريخ.

١٥. صحيح البخاري بشرحه فتح الباري للإمام البخاري، ت٢٥٦هـ، حققه عبدالعزيز بن باز رقمه محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

١٦. صفوة التفاسير، تأليف محمد علي الصابوني، ط٢، دار الفكر، بيروت، سنة١٤١٩هـ-١٨٩٩.

١٧. علوم الحديث لابن الصلاح الشهرزوري، ت ٦٤٣هـ، للإمام أبي عمرو عثمان بن عبدالرحمن المعروف بابن الصلاح الشهرزوري، ت٤٦٣هـ، تحقيق نور الدين، ط دار الفكر، ط٣، سنة١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

١٨. فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي الشوكاني، ت١٢٥٠هـ، ط دار الفكر، سنة١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، بيروت.

١٩. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام محمود بن عمر الزمخشري، ت٥٣٨هـ، الناشر، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، رتبه وضبطه وصححه مصطفى حسين أحمد، ط٣ سنة١٤٠٧هـ-١٩٧٨م.

٢٠. مختار الصحاح، تأليف محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، ت٦٦٦هـ، طبعة دار الرسالة، كويت سنة١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢١. معاني القرآن، تأليف أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، ت٢٠٧هـ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ط٢.

٢٢. معاني القرآن للأخفش، سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي، دراسة وتحقيق د.عبدالأمير محمد أمين الورد، ط١، عالم الكتب، بيروت، سنة١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٢٣. معاني القرآن وإعرابه للزجاج، أبي إسحاق إبراهيم السري، شرح وتحقيق د. عبدالجليل عبده شلبي، طبعة عالم الكتب، ط١ن سنة١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢٤. الوجوه والنظائر في القرآن الكريم عن هارون بن موسى القارئ، ت: أواخر القرن الثاني الهجري، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، ط سنة١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، دار الحرية للطباعة، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، دار الآثار والتراث.